

تَفْسِيرُ الْمُرَائِغِي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقاً

الجزر الحادي والعشرون

الطبعة الأولى
١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الحادى والعشرون

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَلِكَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح المفردات

الجدل : الحجاج والمناظرة ، مسلمون : أى خاضعون مطيعون ، والجحد : نفى ما فى القلب ثبوته أو إثبات ما فى القلب نفيه ؛ والمراد به هنا الإنكار عن علم ، والارتباب : الشك ، الظالمون : أى الذين ظلموا أنفسهم وجحدوا وجه الحق .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه طريق إرشاد المشركين وجدالهم بالخشن من القول ، والمبالغة فى تسميه آرائهم وتوهين شبههم بنحو قوله : « صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ » وقوله : « كَلِمٌ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَكَلِمٌ أَعْيُنٌ لَا يَبْصُرُونَ بِهَا وَكَلِمٌ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا » إلى أشباه ذلك - أردف هذا بذكر طريق إرشاد أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأن يسلك معهم طريق الحجاج بالحسنى ، ولا يسمه آراءهم ، ولا ينسب إلى الضلال آباءهم . ذاك أن المشركين جاؤا بالمنكر من القول ونسبوا إلى الله ما لا ينبغي من الشريك والولد ، أما أهل الكتاب فقد اعترفوا بالله وأنبيائه ، لكنهم أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا إن شريعتهم باقية على وجه الدهر لا تنسخ بشرية أخرى ، فينبغى إقناع مثل هؤلاء بالحسن من القول ولفت أنظارهم إلى الأدلة الباهرة الدالة على نبوته وصدق رسالته بما يكون لهم فيه مقنع وبما لو تأملوا فيه وصلوا إلى الصواب وأدركوا الأمر على الوجه الحق ، إلا من ظلموا منهم وعاندوا ولم يقبلوا النصيح والإرشاد فاستعملوا معهم العظلة فى القول والأسلوب الخفاف فى الحديث ، أعاءهم يشوبون إلى رشدهم ويتأملون فيما يقنعهم من الحجج والبراهين .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم : آمنا بالذى أنزل إلينا من القرآن وأنزل إليكم من التوراة والإنجيل ، وإن إلها واحد ونحن مطيعون له .

ثم ذكر أن من أهل الكتاب من يؤمن بالقرآن ، كما أن من أهل مكة من يؤمن به ، وما يحدد به إلا من توغل فى الكفر ، وعدم حسن التأمل والفكر ، إذ لا ريب فى صدق رسوله وأن كتابه منزل من عند ربه ، فإن رجلا أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يتعلم العلم ولم يدارس إنسانا مدى حياته يأتي بهذه الحكم والأحكام وجمل الآداب ومكارم الأخلاق ، مما لم يكن له مشيل فى محيط نشأته ، ولا فى بلد كان يأويه - لمن أ كبر الأدلة على أنه ليس من عند بشر ، بل أوتيته من لدن حكيم خبير .

الإيضاح

(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم) أى ولا تجادلوا من أراد الاستبصار فى الدين من اليهود والنصارى إلا باللين والرفق ، وقابلوا الغضب بكظم الغيظ ، والشغب بالنصح ، والسَّوْرَة بالأناة .

ونحو الآية قوله : « ادْفَعْ بِأَتَى هِيَ أَحْسَنُ » وقوله : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » وقوله لموسى وهرون حين بعثهما إلى فرعون « قَوْلًا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » .

إلا من ظلموا منهم وحادوا عن وجه الحق وعموا عن واضح الحجة وعاندوا وكابروا ولم يُجِدْ فيهم الرفق ، فمثل هؤلاء لا ينفع فيهم إلا الغلظة :

ووضع الندى فى موضع السيف بالاعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى

قال سعيد بن جبير ومجاهد : المراد بالذين ظلموا منهم - الذين نصبوا القتال للمسلمين وأذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجدلهم بالسيف حتى يُسلموا أو يعطوا الجزية .

(وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) أى إذا حدثكم أهل الكتاب عن كتبهم وأخبارهم عنها بما يمكن أن يكونوا صادقين فيه وأن يكونوا كاذبين ولم تعلموا حالهم فى ذلك - فقولوا لهم : آمنا بالقرآن الذى أنزل إلينا والتوراة والإنجيل اللذين أنزل إليكم ، ومعبودنا ومعبودكم واحد ونحن خاضعون له ، متقادون لأمره ونهيهِ والطاعة له .

زوى البخارى والنسائى عن أبى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل

إليك وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» وروى عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، إما أن تكذبوا بحق، وإما أن تصدقوا بباطل» وفي البخارى عن حميد ابن عبد الرحمن سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة، وذكر كعب الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء الحداث الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب.

ثم بين أنه لا عجب فى إنزال القرآن على الرسول فهو على مثال ما أنزل من الكتب من قبل فقال:

(وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به) أى كما أنزلنا الكتب على من قبلك أيها الرسول - أنزلنا إليك هذا الكتاب، فالذين آتيناهم الكتب ممن تقدم عهدك من اليهود والنصارى يؤمنون به إذ كانوا مصدقين بنزوله على حسب ما علموا عندهم من الكتاب، ومن كفر قريش وغيرهم من يؤمن به.

(وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) أى وما يكذب بآياتنا ويحجد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ويغشى ضوء الشمس بالوصائل ويغبط حق النعمة عليه وينكر التوحيد عناداً واستكباراً.

ثم ذكر ما يؤيد إنزاله ويزيل الشبهة فى افتراءه فقال:

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطون) أى وما كنت من قبل إنزال الكتاب إليك تتدبر أن تتلو كتاباً ولا تخطه يمينك: أى ليس من دأبك وعادتك ذلك، إذ لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط أو ممن يعتادها لارتاب المشركون وقالوا لعله التقط ذلك من كتب الأوائل، ولما لم يكن أمره هكذا لم يكن لارتبابهم وجه.

قال مجاهد : كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية .

وخلاصة ما سلف — إنك قد لبثت في قومك عمرا طويلا قبل أن تأتى بهذا القرآن ، لا تقرأ ولا تكتب ، وكل واحد من قومك يعرف أنك أُمى لا تقرأ ولا تكتب ، وهذه صفتك في الكتب المتقدمة كما قال : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ » .

فلا وجه إذاً للشك في أن هذا القرآن منزل من عند الله وليس مفتعلا من صنع يدك تعلمته من الكتب الماثورة عن قبلك كما حكى سبحانه عنهم من نحو قولهم : « وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » .

ثم أكد ما سلف و بين أنه منزل من عند الله حقا فقال :

(بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) أى بل هذا القرآن آيات واضحة الدلالة على الحق ، يسر الله حفظها وتفسيرها للعلماء كما قال : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ . فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ » .

روى البخارى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبي إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا » .

(وما يجاد بآياتنا إلا الظالمون) أى وما يكذب آياتنا ويبخس حقها ويردها إلا المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه .

ونحو الآية قوله « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَذِبَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » .

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوَاطِئَتِ هُمْ الْخَاسِرُونَ (٥٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الدليل على أن القرآن من عند الله وليس بمفترى من عند محمد صلى الله عليه وسلم - أردف هذا بشبهة أخرى لهم وهى أنهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتى لهم بمعجزة محسوسة كما أتى بذلك الأنبياء السابقون كمنافقة صالح وعصا موسى ، فأجابهم بأن أمر ذلك إلى الله لا إليه ؛ فلو علم أنكم تهتدون بها لأجابكم إلى ما طلبتم ، ثم بين سخف عقولهم وطلبهم الآيات الدالة على صدقه بعد أن جاءهم بالمعجزة الباقية على وجه الدهر وهى القرآن يتلى عليهم آناء الليل وأطراف النهار ، فيه خبر من قبلهم ونبا من بعدهم وحكم ما بينهم ، وفيه بيان الحق ودحض الباطل ، وفيه ذكرى حلول العقاب بالمكذبين والمعاصين .

ثم أبان أن الله شهيد على صدقه وهو العالم بما فى السموات والأرض ، ثم هدد الكافرين بأن كل من يكذب رسل الله بعد قيام الأدلة على صدقهم ، ويؤمن بالجبوت والطاغوت فقد خسر صفقته ، وسينال العقاب من ربه جزاء وفاقا على جحوده وإنكاره .

أخرج الدارمى وأبو داود عن يحيى بن جعدة قال: جاء ناس من المسلمين بكتب قد كتبوها فيها بعض ما سمعوه من اليهود ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « كفى بقوم حمقا أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم »

فنزلت « أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ » الآية . وأخرج البخاري عند تفسير الآية قوله صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن » أى يستغن به عن غيره . وعن عبد الله ابن الحرث الأنصارى قال : « دخل عمر بن الخطاب على النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تغيرا شديدا لم أر مثله قط ، فقال عبد الله ابن الحرث لعمر : أما ترى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام ديننا ، وبمحمد نبيا ، فسرّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم ، أنا حظكم من النبيين وأنتم حظي من الأمم » أخرجه عبد الرزاق .

الإيضاح

(وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه) أى وقال كفار قريش تعنتا وعنادا . هلا أنزل على محمد آية من الآيات التى أنزل مثلها على رسل الله الماضين كمنافاة صالح وعصا موسى وأشباههما من المعجزات المحسوسة التى ترى رأى العين ، فيكون ذلك أقبل لدى النفوس وأدهش للعقول ، فتلجى إلى التصديق بمن تظهور على يده المعجزة . فأمره الله أن يحييهم بقوله :

(قل إنما الآيات عند الله) أى قل لهم : إنما أمر الآيات ونزول المعجزات إلى الله ، ولو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى ما سألتهم ، لأن ذلك سهل يسير عليه ، ولكنه يعلم أنكم إنما قصدتم بذلك التعنت والامتحان ، فهو لا يجيبكم إلى ما طلبتم كما قال سبحانه « وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا » .

(وإنما أنا نذير مبين) أى ليس من شأنى إلا الإنذار بما أوتيت من الآيات ، لا الإتيان بما اقترحتموه منها ، فعلى أن أبلغكم رسالة ربى وليس على هذا كما قال

« وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا » وقال : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

ثم بين سبحانه سخفهم وجهلهم ، إذ كيف يطالبون الآيات مع نزول القرآن عليهم فقال :

(أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) أى أما كفاهم دليلا على صدقك أنزلنا الكتاب عليك يتلونه ويتدارسونه ليل نهار وأنت رجل أحمى لا تقرأ ولا تكتب ولم تخالط أحدا من أهل الكتاب ، وقد جئتهم بأخبار ما فى الصحف الأولى وبيئت الصواب فيما اختلفوا فيه كما قال : « أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى » .

ثم بين فضائل هذا الكتاب ومزاياه فقال :

(إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) أى إن فى هذا الكتاب الباقي على وجه الدهر - لرحمة لمن آمن به ببيان الحق وإزالة الباطل ، وتذكرة بعقاب الله الذى حل بالملكذبين قبلكم وبما سيحل بهم من النكال والوبال ، وبما سيكون لمن اتبع سنتهم وكذب بالآيات بعد وضوحها .

وبعد أن أقام الأدلة على صدق رسالته ، وبين أن المعاندين من أهل الكتاب والمشركين لم يؤمنوا به - أمره أن يكل علم ذلك إلى الله وهو العليم بصدقه وكذبه فقال :

(قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا) أى كفى الله علما بما صدر منى من التبليغ والإنذار ، وبما صدر منكم من مقابلة ذلك بالكذب والإنكار ، وهو المجازى كلا بما يستحق ، وإنى لو كنت كاذبا عليه لا تنقم منى كما قال : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » بل إنى صادق فيما أخبركم به ، ومن ثم أيدنى بالمعجزات الواضحات ، والدلائل القاطعات .

ثم عدل كفايته وأكدها بقوله :

(يعلم ما فى السموات والأرض) أى هو العليم بكل ما فيهما ، ومن جملة شأى وشأنكم ، فيعلم ما تنسبونونه إلى من التقول عليه . وبما أنسبه إليه من القرآن الذى يشهد لى به عجزكم عن الإتيان بمثله ، فهو حججى الفالجة عليكم ، التى لم تستطيعوا لها ردا ولا دفعا .

ولما بين طريق إرشاد كل من أهل الكتاب والمشركين - عاد إلى التهديد والإنكار عيهما ، فقال :

(والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) أى والذين يعبدون الأوثان والأصنام ويكفرون بالله ، مع تظاهر الأدلة التى فى الآفاق والأنفس على الإيمان به ، ويكفرون برسوله مع تعاضد البراهين على صدقه ، أولئك هم الأخسرون أعمالا ، المغبونون فى صفتهم ، من حيث اشتروا الكفر بالإيمان ، فاستوجبوا العقاب حين الوقوف بين يدى الملك الديان .

وخلاصة ذلك : إن الله سيجزيهم على ما صنعوا من تكذيبهم بالحق . واتباعهم للباطل ، وتكذيبهم برسول الله ، مع قيام الأدلة على صدقه « نَارًا تَلْقَى . لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى » .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ
وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ
لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَرَوْنَ يَعْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ
أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) .

المعنى الجملى

بعد أن أنذر الكافرين بالعذاب ، وهذذهم أعظم تهديد قالوا له تهكم واستهزاء : إن كان هذا حقاً فأنتنا به ، وعم يقطعون بعدم حصوله ، فأجابهم بأنه لا يأتىكم بسؤالكم ولا يعجل باستعجالكم ، لأن الله أجله لحكمة ، ولولا ذلك الأجل المسمى ، الذى اقتضته حكمته ، وارتضته رحمته ، امجله لكم ولأوقعه بكم ، وإنه ليأتىنكم فجأة وأنتم لا تشعرون به ، ثم تعجب منهم فى طلبهم الاستعجال ، وهو سيعيط بهم فى جميع نواحيهم ، ويقال لهم على طريق الإهانة والتوبيخ : ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون .

الإيضاح

(ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب) أى ويستعجلوك كفار مريش بنزول العذاب ، بنحو قولهم : « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » ، وقولهم : « أَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » ولولا أجل مسمى ، قد ضربه الله لعذابهم ، لجاءهم حين استعجالهم إياه .

(وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون) أى وليأتينهم العذاب فجأة ، وهم لا يشعرون بمجيئه ، بل يكونون فى غفلة عنه ، واشتغال بما ينسيهم إياه .

ثم زاد فى التعجب من جهلهم بقوله :

(يستعجلوك بالعذاب) أى وهم يطلبون منك إيقاع العذاب ناجزاً فى غير ميقاته ، ولو علموا ما هم صائرون إليه ، لتبوا أنهم لم يخافوا : فضلاً عن أن يستعجلوا ، ولأعملوا جميع جهدهم فى الخلاص منه .

ثم بين السبب فى جهلهم وحقهم ، فقال :

(وإن جهنم لحيطَةٌ بالكافرين) أى وإن جهنم ستمحيط بالكافرين المستعجلين للعذاب يوم القيامة .

ثم ذكر كيف تحيط بهم ، فقال :

(يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) أى يوم يحلهم العذاب ، ويكون من الأحوال والأحوال ما لا ينفى به المقال ، ويقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع : (ذوقوا ما كنتم تعملون) وهذا عذاب معنوى أشد أذا من العذاب الحسى فى نار جهنم .

ونحو الآية قوله : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » وقوله : « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » وقوله : « لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ » الآية ، وقوله : « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » وقوله : « يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ فِيهَا تُكذَّبُونَ » .

يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ ارْضَىٰ وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٍ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيُّنَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال المشركين ، وأحوال أهل الكتاب ، وأنذرهما بالخسران ، وجعلهما من أهل النار - اشتد عنادهم وآذوا المؤمنين ومنعهم من العبادة ، فأمرهم الله بالهجرة إلى دار أخرى إن تعذرت عليهم العبادة فى ديارهم .

ولما كانت مفارقة الأوطان عزيزة على النفس كريهة لديها ، بين لهم أن المكروه واقع لا محالة إن لم يكن بالهجرة فهو حاصل بالموت ، فأولى بكم أن يكون ذلك في سبيل الله لتنالوا جزاءه ومرجعكم إلى ربكم ، وحينئذ تتألون من النعيم المقيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فهناك الغرف التي تجري من تحتها الأنهار ، ونعم هذا الأجر جزاء للعاملين الصابرين المتوكلين على ربهم ، الذين علمون أن الله قد تكفل بأرزاقهم ، كما تكفل بأرزاق جميع مخلوقاته ، وهو السميع لدعائهم ، العليم بحاجتهم .

روى أن الآية نزلت في قوم تخفوا عن الهجرة ، وقالوا : نخشى إن نحن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة .

الإيضاح

(يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فأياى فاعبدون) أى يا عبادى الذين وحدوني وآمنوا بى ورسولى محمد صلى الله عليه وسلم إن أرضى لم ضيق عليكم فتقيموا منها بموضع لا يحل لىكم المقام فيه ، فإذا انتشرت في موضع ما معاصى الله ، ولم تقدرنا على تغييرها ، وهربوا منه إلى موضع آخر نتكئون من القيام فيه بشعائر دينكم .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « البلاد بلاد الله والعباد عباد الله ، فحينما أصبت خيراً فأنقم » ومن ثم لم ضاق على المستضعفين مقدمهم بمكة خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليؤمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير المنزلين لدى أصحّة النجاشي ملك الحبشة ، فأواهم وأيدهم بنصره وأنزلهم ضيوفاً مكرمين ببلاده ، ثم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابية الباقيون إلى المدينة .

والخلاصة : إن الله أمر المؤمنين بالهجرة إن لم تسق لهم إقامة شعائر دينهم ، إلى أرض يستطيعون فيها ذلك .

ثم حث على إخلاص العبادة له والهجرة من الوطن ، فبين أن الدنيا ليست دار بقاء وأن وراءها دار الجزاء التى يؤتى فيها كل عامل جزاء عمله فقال :

(كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون) أى أينما تكونوا يدرككم الموت ،

وكونوا فى طاعة الله وافعلوا ما أمركم به ، فذلك خير لكم ، فإن الموت لا محالة آت ،

ولله در القائل :

الموت فى كل حين يَنشُدُ الكفنا ونحن فى غفلة عما يُراد بنا
لا تركننَ إلى الدنيا وزهرتها وإن توشحت من أثوابها الحسنات
أين الأحبة والجيران ما فعلوا أين الذين هم كانوا لها سكنات ؟
سقام الموت كأساً غير صافية صيرتهم تحت أطباق الثرى رهناً
ثم إلى الله مرجعكم ، فمن كان مطيعاً له جازاه خير الجزاء وآتاه أنعم الثواب .
والخلاصة لا يصعب عليكم ترك الأوطان مرضاة الرحمن ، بل هاجروا إلى أوفق
البلاد وإن بعدت ، فإن مدى لدنيا قريب ، والموت لا محيص منه ، ثم إلى ربكم
ترجعون ، فيوفىكم جزاء ما تعملون ، فقدموا له خير العمل تفوزوا بنعيم مقيم ، وجنة
عرضاها السموات والأرض .

ثم بين جزاء المؤمن بر به ، المهاجر بدينه فراراً من شرك المشركين ، فقال :

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبؤنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار
خالدين فيها نعم أجر العاملين) أى والذين صدقوا الله ورسوله فيما جاء به من عنده ،
وعملوا بما أمرهم به ، فأطاعوه واتموا عما نهاهم عنه امتنزلتهم من الجنة علالي وقصوراً
تجرى من تحت أشجارها الأنهار ما كثين فيها إلى غير نهاية جزاء لهم على ما عملوا
ونعم الجزاء .

ثم بين صفات هؤلاء العاملين الذين استحقوا تلك الجنات بقوله :

(الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) أى هؤلاء العاملون هم الذين صبروا على

أذى المشركين وشدائد الهجرة وغيرهما من الجهود والمشاق ، وتوكلوا على ربهم فيما يأتون وما يذرون كأرزاقهم وجهاد أعدائهم ، فلا يفتكّلون عنهم ، ولا يتراجعون ثقة منهم بأن الله مُعَلِّ كلّهم ، وموهن كيد الكافرين ، وأن ما قسم لهم من الرزق لن يفوتهم .

ثم ذكر سبحانه ما يعين على التوكل عليه وأنه الكافى أمر الرزق فى الوطن والغربة فقال :

(وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم) أى هاجروا أيها المؤمنون بالله ورسوله ، وجاهدوا أعداءه ، ولا تخافوا عيالة ولا إفتارا ، فكم من دابة ذات حاجة إلى الغذاء والمطعم لا تطيق جمع قوتها ولا حمله ، فترفعه من يومها لغده ، عجزا منها عن ذلك ، الله يرزقها وإياكم يوما بيوم وساعة فساعة ، وهو السميع لقولكم نخشى من فراق أوطاننا العيلة ، العليم بما فى أنفسكم ، وإياه يصير أمركم وأمر عدوكم من إذلال الله إياه ونصرتكم عليه ، ولا تخفى عليه خافية من أمور خلقه .

روى ابن عباس « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للمؤمنين بمكة حين أذاهم المشركون : أخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظمة ، قالوا ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا ولا من يسقينا فنزلت الآية » .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) .

المعنى الجملى

لما بين الأمر للمشرّكين وذکر لهم سوء مغبة أعمالهم - خاطب المؤمنين بما فيه مدّ کر لهم ، وذکر ما يكون إرشادا للمشرک لو تأمله وفکر فيه ، ومثل هذا مثل الوالد له ولدان : أحدهما رشيد والآخر مفسد ، فهو ينصح المفسد أولا ، فإن لم يسمع يعرض عنه ويلتفت إلى الرشيد قائلا : إن هذا لا يستحق أن يخاطب ، فاسمع أنت ولا تكن كهذا المفسد ، فيكون في هذا نصيحة المصلح وزجر للمفسد ودعوة له إلى سبيل الرشاد .

الإيضاح

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله)
أى ولئن سألت هؤلاء المشرّكين بالله : من خلق السموات والأرض فسواهن ، وسخر الشمس والقمر يجرّيان دائبين لمصالح خلقه ؟ ليقولن : الذى خلق ذلك وفعله هو الله .
(فأنى يؤفكون ؟) أى فكيف يُصرفون عن توحيده وإخلاص العبادة له بعد إقرارهم بأنه خالق كل ذلك .

والخلاصة - إنهم يعترفون بأنه هو الخالق للسموات والأرض والمسخر للشمس والقمر ، ثم هم مع ذلك يعبدون سواء ويتوكلون على غيره ، فكأنه الواحد فى ملكه فليكن الواحد فى عبادته ، وكثيرا ما يقرر القرآن توحيد الألوهية بعد الاعتراف بتوحيد الربوبية التى كانوا يدينون بها بنحو قولهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك .

ولما ذكر اعترافهم بالخلق ذكر حال الرزق من قبل أن كمال الخلق ببقائه ، ولا بقاء له إلا بالرزق فقال :

(الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر له) أى إن الله يوسع رزقه على من يشاء من خلقه ، ويقتصر على من يشاء ، فالأرزاق وقسمتها بيده تعالى لا بيد أحد سواه ،

فلا يؤخّرْكم عن الهجرة وجهاد عدوكم خوف العيلة والفقر ، فمن بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق عباده .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » .

ثم علل هذا التفاوت فى الرزق بين عباده بعلمه بالمصلحة فى ذلك فقال :

(إِنْ لِلَّهِ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمٌ) أى إنه هو العليم بمصالحكم ، فيعلم من يصلحهم البسط ومن يفسدهم ويعطيهم على حسب ذلك إن شاء .

ثم ذكر اعترافهم بهذا بقوله :

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) أى ولئن سألتهم من ينزل من السحاب ماء فيحيى به الأرض القفر فتصير خضراء تتهز بعد أن لم تكن كذلك - لم يجدوا إلا سبيلا واحدة ، وهى الاعتراف الذى لا يحصى منه بأنه الله فهو الموجد لاسائر المخلوقات ، ومن عجب أنهم بعد ذلك يشركون به بعض مخلوقاته التى لا تقدر على شيء من ذلك .

ولما أثبت أنه الخالق بدءا وإعادة - نبه إلى عظمة صفاته التى يلزم من إثباتها صدق رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) أى قل متعجباً من حالهم : الحمد لله على إظهار الحجة واعترافهم بأن النعم كلها منه تعالى ، ولكن أكثر المشركين لا يعقلون ما لهم فيه من النفع فى دينهم وما فيه الضرر لهم ، فهم لجهلهم يحسبون أنهم لعبادتهم الآلهة دون الله يشالون بها الزانى والقرب عنده .

والخلاصة — إن أقوالهم تخالف أفعالهم ، فهم يقولون بوحداية الله وعظيم قدرته وجلاله ، ثم هم يعبدون معه سواه مما هم معترفون بأنه خلقه .

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ

لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ
وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) .

شرح المفردات

المهو : الاستمتاع باللذات ، واللعب : هو العبث وما لافائدة فيه ، الحيوان :
أى الحياة التامة التى لا فناء بعدها .

المعنى الجملى

لما ذكر فيما سلف أنهم يعترفون بأن الله هو الخالق وأنه هو الرازق وهم بعد ذلك
يتركون عبادته ويعبدون من دونه الشركاء اغترارا بزخرف الدنيا وزينتها - أردف
ذلك بأن هذه الدنيا باطل وعبث زائل ، وإنما الحياة الحقة هى الحياة الآخرة التى
لا فناء بعدها ؛ فلو أوتوا شيئا من العلم ما آثروا تلك على هذه .

ثم أرشد إلى أنهم مع إشرأ كههم برهم سواء فى الدعاء والعبادة ، إذا هم ابتلوا
بالشدائد كما إذا ركبوا البحر وعلتهم الأمواج من كل جانب وخافوا الفرق نادوا الله
معترفين بوحديته وأنه لا منجى سواه ، وليتهم استمروا على ذلك ، ولكن سرعان
ما يرجعون القهقري ويعودون سيرتهم الأولى كما هو دأب من يعمل للخوف لا للعقيدة .

الإيضاح

(وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب) أى وما هذه الحياة الدنيا التى يتمتع بها
هؤلاء المشركون إلا شئ يتعامل به ، ثم هو منقضى عما قريب لابقاء له ولا دوام ،
ومن ثم قيل : الدنيا إن بقيت لك لم تبق لها ، وأنشد :

تروح لنا الدنيا بغير الذى غدت وتحدث من بعد الأمور أمور
وتجرى الياالى باجتماع وفرقة وتطلع فيها أنجم وتغور

فمن ظن أن الدهر باق سروره . فذاك محال لايدوم سرور
عفا الله عن صير الهم واحدا . وأيقن أن الدائرات تدور
(وإن الدار الآخرة هى الحيوان) أى وإن الدار الآخرة هى دار الحياة الدائمة
التي لا زول لها ولا انقطاع .

(فوكانوا يعلمون) أى لو كانوا يعلمون أن ذلك كذلك لما آثروا عليها الحياة
الدنيا السريعة الزوال الوشيكَة الاضمحلال .

ثم أخبر بأن تلك حال المشركين فى الرخاء ، فإذا ابتلوا بالشدائد دعوا الله وحده
ليخلصهم منها كما قال :

(فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) أى فإذا ركب هؤلاء
المشركون فى السفينة وخافوا الغرق دعوا الله وحده ، وأفردوا له الطاعة ولم يستغيثوا
بآلهتهم وأندادهم ، ليخلصوهم من تلك الشدة ، فهلا يكون هذا منهم دائما .

ثم بين سرعة رجوعهم وعودتهم إلى ما كانوا عليه وشيكا فقال :

(فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) أى فلما خدعهم مما كانوا فيه من الضيق
ونجاهم من الهلاك ووصلوا إلى البر رجعوا الفهمرى وعادوا سيرتهم الأولى وجعلوا مع
الله الشركاء ودعوا الآلهة والأنداد .

ونحو الآية قوله « وَإِذَا سَسَكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا ،
فَلَمَّا نَجَّيَاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا » .

روى محمد بن إسحاق فى السيرة عن عكرمة بن أبى جهل قال : « لما فتح رسول
الله صلى الله عليه وسلم مكة ذهبت فارا منها ، فلما ركبت البحر إلى الحبشة
اضطربت بنا السفينة ، فقال أهلها : يا قوم أخلصوا ربكم الدعاء فإنه لا منجى هاهنا
إلا هو ، فقال عكرمة : لئن كان لا ينجى فى البحر غيره فإنه لا ينجى فى البر أيضا غيره ،
اللهم لك على عهد لئن خرجت لأذهبن فلاضعن يدي فى يد محمد فلاجدنه رءوفا
رحيما فكان كذلك » .

وقال عكرمة : كان أهل الجاهلية إذا ركبوا فى لبحر حملوا معهم الأصنام ، فإذا اشتد عليهم الريح ألقوها فيه وقالوا يارب يارب .
قال الرازى فى اللوامع : وهذا دليل على أن معرفة الرب فى فطرة كل إنسان ، وأنهم إن غفلوا فى السراء فلا شك أنهم يلوذون إليه فى حال الضراء اه .
(ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا) أى يشركون لتكون عاقبة أمرهم الكفران بما آتيناهم من نعمة النجاة ، وليتمتعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام وتواديهم عليها .
ثم تهددهم وتوعدهم فقال :
(فسوف يعلمون) عاقبة ذلك حين يعلمون يوم القيامة .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن المشركين حين يشتد بهم الخوف إذا ركبوا فى الفلك ونحوه لجئوا إلى الله وحده مخلصين له العباداة - ذكر هنا أنهم حين الأمن كما إذا كانوا فى حصنهم الحصين وهو مكة التى يأمن من دخلها من الشرور والأذى يكفرون به ويعبدون معه سواء ، وتلك حال من التناقض لا يرضاها لنفسه عاقل ، فإن دعاءهم إياه حال الخوف مع الإخلاص ما كان إلا ليقينهم بأن نعمة النجاة منه لا من سواء ، فكيف يكفرون به حين الأمن ، وهم يفتنون بأن الأصنام حين الخوف لا تنجدهم فتبيلا ولا قطميرا ؟ .

الإيضاح

(أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ؟) أى أولم يروا هؤلاء المشركون من قریش ما خصصناهم به من النعمة دون سائر عبادنا ، فأسكناهم بلداً حرماً على الناس أن يدخلوه لغارة أو حرب ، وآمناً من سكنه من القتل والسبي والناس من حولهم يقتلون ويسبون فى كل حين ، فيشكرونا على ذلك ، ويزدجروا عن كفرهم بنا وإشراكهم ما لا ينفعهم ولا يضرهم .

والخلاصة : إنه تعالى يمتن على قریش بما أحلهم من حرمة الذى جعله للناس سواء اعيا كف فيه والباد ، ومن دخله كان آمناً ، فهم فى أمن عظيم ، والأعراب حولهم نهب مقسم يقتل بعضهم بعضاً ، ويسبى بعضهم بعضاً ، ثم هم مع ذلك يكفرون به ويعبدون معه سواه .

ونحو الآية قوله : « لِيَلْأَلَفَ قُرَيْشٍ . إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ . وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » .

ثم بين أن العقل كان يقضى بشكرهم على هذه النعمة ، لكنهم كفروا بها وما جئوا إلى مرضاة ربهم ، فقال :

(أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ؟) أى أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به ، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد ، وبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ، فكفروا بنبي الله وعبيده ورسوله .

والخلاصة : إنه كان من حق شكرهم له على هذه النعم لإخلاص العباد له وألا يشركوا به وأن يصدقوا برسوله ويعظموه ويوقروه ، لكنهم كذبوه فقاتلوه وأخرجوه من بين أظهرهم ، ومن ثم سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم ، بقتل من قتل منهم بيداً ، وأسر من أسر ، حتى قطع دابرهم يوم الفتح ، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم .

ولما استنارت الحجة ، وظهر الدليل ، ولم يكن لهم فيه مفتح ، بين أنهم قوم ظلمة مفترون وضعوا الأمور في غير مواضعها بكذبهم على الله ، فقال :

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه) أى ومن أظلم من كذبوا على الله ، بأن زعموا أن نه شريكا ، وأنهم إذا فعلوا فاحشة قالوا : إن الله أمرنا بها ، والله لا يأمر بالفحشاء ، وكذبوا بالكتاب حين مجيئه ، دون أن يتأملوا فيه أو يتوقفوا ، بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه .

وفى هذا من تسفيه آرائهم ، وتقبيح طرائقهم ما لا يخفى .

ثم بين سوء مغبة أعمالهم بطريق الاستفهام التقريرى ، وهو أبلغ فى إثبات المطلوب ، فقال :

(أليس فى جهنم مثوى للكافرين ؟) أى ألا يستوجب هؤلاء الكافرون من أهل مكة الثواء فى جهنم ، وقد افتروا على الله مثل هذا الكذب ، وكذبوا بالكتاب لما جاءهم بلا تريث ولا تلبث ؟ .

والخلاصة : إن مثوى هؤلاء وأشباههم جهنم وبئس المصير .

وبعد أن بين عاقبة أولئك الكافرين ذكر عاقبة المؤمنين الذين اهتدوا بهدى الله

وجاهدوا فى سبيله ، فقال :

(والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا) أى والذين قاتلوا هؤلاء المفترين على الله الكذب ، المكذبين لما جاءهم به رسوله ، مبتغين بقتالهم علو كلمتنا ونصرة ديننا ، لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير ، وتوفيقا لسلوكها كما قال : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » وجاء فى الحديث : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » ، وقال عمر بن عبد العزيز : إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا فى العمل بما علمنا ، ولو علمنا ببعض ما علمنا لأورثنا علما لا تقوم به أبداننا . وقال أبو سليمان الداراني : ليس الجهاد فى الآية قتال الكفار فقط ، بل هو نصر الدين ، والرد على المبطلين ، وقع

الظالمين ، وعُظِّمَ الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ومنه مجاهدة النفوس
فى طاعة الله ، وهو الجهاد الأكبر .

ثم ذكر أن الله يعينهم بالنصرة والتوفيق .

(وَإِنْ اللَّهُ لَمَعَ الْحَسَنِينَ) أى وإن الله ذا الرحمة لمع من أحسن من خلقه ،
فجهد أهل الشرك مصداقاً لرسوله فيما جاء به من عند ربه بالمعونة والنصرة على من
جاهد من أعدائه ، وبالمغفرة والثواب فى العقبى .

روى ابن أبى حاتم عن الشعبي قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام : إنما
الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، وليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك .
وقد انتهى بهذا تفسير السورة الكريمة ، والله الحمد أولاً وآخراً .

مشتملات هذه السورة الكريمة

- (١) اختبار المؤمنين ليعلم صدقهم في إيمانهم .
- (٢) في الجهاد فائدة للمجاهد ، والله غنى عن ذلك .
- (٣) الحسنات يكفرن السيئات .
- (٤) الأمر بالإحسان إلى الوالدين وبرهما مع عدم طاعتها في الإشراف بالله .
- (٥) حال المنافق الذى يضر الإيمان ولا يحتمل الأذى في سبيل الله .
- (٦) حال الكافرين الذين يضلون غيرهم ، ويقولون للمؤمنين : نحن نحمل خطاياكم إن كنتم ضالين .
- (٧) قصص الأنبياء : كنوح وإبراهيم ولوط وشعيب وصالح وموسى وهرون ، وبيان ما آل إليه أمر الأنبياء من النصر ، وأمر أممهم من الهلاك بصروب مختلفة من العقاب .
- (٨) حجاج المشركين بضرب الأمثال لهم مما فيه تقريرهم وتأييدهم .
- (٩) حجاج أهل الكتاب ، والنهي عن جدلهم باللفظظة والغظة .
- (١٠) إثبات النبوة ببيان صدق معجزته صلى الله عليه وسلم .
- (١١) ذكر بعض شبههم في نبوته ، والرد على ذلك .
- (١٢) استعجالهم بالعذاب تهكما .
- (١٣) أمر المؤمنين بالفرار بدينهم من أرض يخافون فيها الفتنة .
- (١٤) العاقبة الحسنى للذين يعملون الصالحات .
- (١٥) اعترافهم بأن الخالق الرازق هو الله .
- (١٦) بيان أن الدار الآخرة هي دار الحياة الحققة .
- (١٧) امتنانه على قریش بسكنائهم البيت الحرام ، ثم كفرانهم بهذه النعمة بإشراكهم به سواه .

سورة الروم

هى مكية إلا قوله تعالى : « وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ » فمدنية ، وعدة آياتها ستون ، نزلت بعد سورة الانشقاق .
ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

(١) إن السورة السابقة قد بدئت بالجهاد وختمت به ، فافتتحت بأن الناس لم يخلقوا فى الأرض ليناموا على مهاد الراحة ، بل خلقوا ليجاهدوا حتى يلاقوا ربهم ، وأنهم يلاقون شتى المصاعب من الأهل والأئمة التى يكونون فيها ، وهذه السورة قد بدئت بما يتضمن نصرة المؤمنين ودفع شماتة أعدائهم المشركين ، وهم يجاهدون فى الله ولوجهه ، فكان هذه متممة لما قبلها من هذه الجهة .

(٢) إن ما فى هذه السورة من الحجج على التوحيد والنظر فى الآفاق والأنفس مفصل لما جاء منه مجمل فى السورة السالفة ، إذ قال فى السالفة : « فَأَنْظُرْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ » الخ ، وهنا بين ذلك ، فقال : « أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ » الخ ، وقال : « اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » الخ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآم (١) غَلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) .

شرح المفردات

الروم : أمة عظيمة من ولد روم بن عيص بن إسحق بن إبراهيم ، كذا قال النسابة من العرب ، أدنى الأرض : أى أقربها من الروم ، والأقربىة بالنظر إلى أهل مكة الذين يساق إليهم الحديث . والبضع : ما بين الثلاث إلى العشر ، وقال : المبرد ما بين العقدين فى جميع الأعداد ، ظاهر الحياة الدنيا : هو ما يشاهدونه من زخارفها ولذاتها الموافقة لشهواتهم التى تستدعى انهما كهم فيها وعكوفهم عليها .

المعنى الجملى

روى أن فارس غزوا الروم ، فوافوهم بأذرع وأبصرى من أرض الشام ، فغلبوا عليهم ، وبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو بمكة ، فشق عليهم من قبل أن الفرس مجوس ، والروم أهل كتاب وفرح المشركون بمكة وشمثوا ، ولقوا أصحاب النبى وهم فرحون ، وقالوا : إنكم أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم ، فأزل الله هؤلاء الآيات ، فخرج أبو بكر رضى الله عنه إلى المشركين فقال : أمرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحوا ولا يقرن الله أعينكم (لايسرنكم) فوالله لتظهرن الروم على فارس كما أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم فقام إليه أبى بن خلف ؛ فقال : كذبت ، فقال : أنت أكذب يا عدو الله ، اجعل بيننا أجلا أنا حيك عليه (أراهنك) على عشر قلائص منى ، وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت ، وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين ، فنأخيه ، ثم جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال عليه السلام : زائده فى الخطر وماده فى الأجل ، فخرج أبو بكر ، فلقى أبيبا ، فقال : لعلك ندمت ، فقال : لا ، تعال أرايدك فى الخطر ، وأمادك فى الأجل ، فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين ، قال : قد فعلت ، فلما أراد أبو بكر الهجرة طلب منه أبى كفيلا بالخطر إن غلب ،

فكفل به ابنه عبد الرحمن ، فلما أراد أبى الخروج إلى أُحُد طلبه عبد الرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلا ، ومات أبى من جرح جرحه إياه النبي صلى الله عليه وسلم في الموقعة وظهرت الروم على فارس لما دخلت السنة السابعة ، فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبى وجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : تصدق به (وقد كان هذا قبل تحريم القمار كما أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقي ، لأن السورة مكية وتحريم الخمر والميسر بالمدينة) .

الإيضاح

(ألم) تقدم في السورة قبلها ما فيه الكفاية من الكلام في أمثال هذه الحروف في أوائل السور ، وقد بينا هناك أنه ينطق بأسمائها فيقال (أئف . لام . ميم) .
(غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين)
أى غلبت فارس الروم في أقرب أرض الروم بالنسبة إلى بلاد العرب ، إذ الموقعة كانت بين الأرذُن وفلسطين ، والروم من بعد غلب فارس إياهم سيغلبون فارس في بضع سنين ، وقد تحقق ذلك فغلبوهم بعد سبع من الموقعة الأولى .
ولا شك أن وقوعه على نحو ما قال الكتاب الكريم يعد من أكبر الدلائل على إعجازه ، وأنه كلام الله العليم بكل شيء لا كلام البشر .

(لله الأمر من قبل ومن بعد) أى لله الأمر من قبل غلب دولة الروم على فارس ومن بعدها ، فمن غلب فهو بأمر الله وقضائه وقدره كما قال : « وَلَتَلَكَّ الْيَّامُ نُدَاوِلَهَا بَيْنَ النَّاسِ » فهو يقضى في خلقه بما يشاء ويحكم بما يريد ، ويظهر من شاء منهم على من أحب إظهاره عليه .

(ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله) أى ويوم تغلب الروم فارس يفرح المؤمنون بنصر الله وتغلبه من له كتاب على من لا كتاب له ، وغيط من شتموا من كفار مكة ، وأنه سيكون فالأ حسنا تغلبة المؤمنين على الكافرين .

ثم أكد قوله لله الأمر بقوله :

(ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) أى ينصر من يشاء أن ينصره على عدوه ويغلبه عليه على مقتضى السنن التى وضعها فى الخليقة ، وهو المنتقم ممن يستحقون الانتقام بالنصر عليهم ، الرحيم بعباده فلا يعاجلهم بالانتقام على ذنوبهم كما قال : «وَلَوْ يُوَئِدُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى .

(وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى وعد الله وعدا بظهور الروم على فارس ، والله لا يخلف ما وعد ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك لجهلهم بشئونه تعالى وعدم تفكيرهم فى النواميس والسنن التى وضعها فى السكون ، فإنه قد جعل من تلك السنن أن وعده لا يخلف ، فيه مبنى على مقدمات ووسائل هو يعلمها ، وقد رتب عيها تلك العدة التى وعدها ، وجعل قانون القلب فى الأمم والأفراد مبنيا على الاستعداد النفسى والاستعداد الحربى ؛ فلا تغلب أمة خرى إلا بما أعدت لها من وسائل الظفر بها ، وما كان لها من صفات تكفل لها هذا الظفر من أناة وصبر وتضحية بما تمك من عزيز ليسها من مال أو نفس .

وهكذا حكم الفرد فهو لا ينجح فى الحياة إلا إذا كان معه أسلحة يغالب بها عوامل الأيام حتى يغلب عيها بجده وكده ، فهذه الأمور وأمثالها تحتاج إلى دقة نظر لا يدركها إلا ذوو البصائر .

(يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا) كتدبير معاشهم ، وإحسان مساكنهم ، وتمية متاجرهم ، وتصرفهم فى مزارعهم ، على النحو الذى يجعلها تزدهر وتفى بحاجة المجتمع . (وهم عن الآخرة هم غافلون) أى وهم غافلون عن أن النفوس لها بقاء بعد الموت وأنها ستلبس ثوبا آخر فى حياة أخرى ، وستنال إزاء ذلك جزاء ما قدمت من خير أو شر ، ولو لم تكن النفوس تتوقع هذه الحياة لكانت آلام الدنيا ومتاعها لا تنطق

ولا تجد النفوس لاحتمالها سبيلا ، وهى ما قبلت تلك الآلاء واحتملتها إلا لأنها توقن
بسعادة أخرى وراء ما تقاسى من المتاعب فى هذه الحياة ، والله در القائل :

ومن البلية أن ترى لك صاحباً فى صورة الرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة فى ماله وإذا يصاب بدينه لم يشعر

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَخْلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ
لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا
عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَابُوا الشُّرُوءَ أَن كَذَّبُوا
بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) .

المعنى الجملى

لما أنكر المشركون الإله بانكار وعده وأنكروا النبعث كما قال وهم عن الآخرة
هم غافلون - أردف هذا بأن الأدلة متظاهرة فى الأنفس والآفات على وجوده وتفرد
بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه وأنها لم تخلق سدى ولا باطلا . بن خلقت
بالحق وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى هو يوم القيامة . ثم أمرهم بالسير فى أقطار الأرض
ليعلموا حال المكذبين من الأمم قبهم ، وقد كانوا أشد منهم بأسا وقوة ، فكذبوا
رسولهم فأهلكهم الله وصاروا كأمس الدابر والمثل الغابر ، وما كان ذلك إلا بظلمهم
وفساد أنفسهم لا بظلم الله لهم .

الإيضاح

(أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ؟) أى أو لم يتفكر هؤلاء المكذبون بالبعث من قومك فى خلق الله إياهم وأنه خلقهم ولم يكونوا شيئا ، ثم صرفهم أحوالا وتارات حتى صاروا رجالا ، فيعلموا أن الذى فعل ذلك قادر أن يعيدهم بعد فنائهم خلقا جديدا ، ثم يجازى المحسن منهم بإحسانه والمسيء بساءته ، لا يظلم أحدا منهم فيعاقبه بدون جرم صدر منه ، ولا يحرم أحدا منهم جزاء عمله ، لأنه العدل الذى لا يجوز ، فهو ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالعدل وإقامة الحق إلى أجل مؤقت مسمى ، فإذا حل الأجل أفنى ذلك كله وبدل الأرض غير الأرض وبرزوا للحساب جميعا .
ثم ذكر أن كثيرا من الناس غفلوا عن الآخرة وما فيها من حساب وجزاء فقال :

(وإن كثيرا من الناس بقاء ربهم لكافرون) لأنهم لم يتفكروا فى أنفسهم ولو تفكروا فيها ودرسوا عجائبها لأيقنوا بقاء ربهم وأن معادهم إليه بعد فنائهم .
ثم نبههم إلى صدق رسله فيما جاءوا به عنه بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحة من إهلاك من جحد نبوتهم ونجاة من صدقهم فقال :

(أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأناروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى أو لم يسر هؤلاء المكذبون بالله الغافلون عن الآخرة فى البلاد التى يسلكونها تجرأ ، فينظروا إلى آثار الله فيمن كان قبلهم من الأمم المكذبة ، كيف كان عاقبة أمرها فى تكذيبها رسلها ، وقد كانوا أشد منهم قوة وحرثوا الأرض وعمروها أكثر مما عمر هؤلاء ثم أهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم رسله ، وما كان الله بضام لهم بعاقبه إياهم على تكذيبهم رسله ووجودهم آياته ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بمعصيتهم ربهم .

والخلاصة — إنه قد كان لكم فيمن قبلكم من الأمم معتبر ومزدجر ، فقد كانوا أكثر منكم أموالا وأولادا ومُكَّنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا معشاره . وعمرؤا فيها أعماراً طوالا واستغوها أكثر من استغلالكم . ولما جاءتهم الرسل بالبينات كذبوهم وفرحوا بما أوتوا فأخذوا بذنوبهم ولم تغن عنهم أموالهم شيئاً ولم تحل بينهم وبين بأس الله .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون) أى ثم كان العذاب عاقبتهم . أما في الدنيا فلهم البوار والهلاك ، وأما في الآخرة فالنار لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون ، وما ذاك إلا لأن كذبوا بحجج الله وآياته وهم أنبياءه ورسله ، وسخروا منهم عتتا وكبرا .

اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَخُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) .

شرح المفردات

يبلس المجرمون : أى يسكتون وتنقطع حجبتهم ، الروضة : الأرض ذات النبات والماء ؛ ويقال أراض الوادى واستراض : إذا كثر ماؤه ، وأراض القوم : أرواهم بعض لرى ، يحبرون : يسرون ، يقال حبره يحبره (بالضم) حبرا وجبورا : إذا سره سرورا تهللا له

وجهه وظهر فيه أثره ، وفى المثل : امتلأت بيوتهم حيرة ، فهم ينتظرون العبرة ، محضرون : أى مدخلون فيه لا يغيبون عنه .

المعنى الجملى

بعد أن بين أن عاقبة المجرمين النار وكان ذلك يستلزم الإعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة ، بل أقام عليه الدليل بأن أبان أن من خلق الخلق بقدرته وإرادته لا يعجز عن رجعه ، ثم بين ما يكون حين الرجوع من إفلاس المجرمين وتحقيق بأسهم وحيرتهم ، إذ لا تنفعهم شركاؤهم ، بل هم يكفرون بهم ، ثم ذكر أن الناس حينئذ فريقان : فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، فالأولون يتمتعون بسرور وحبور ، والآخرون يصالون النار دأباً لا يغيبون عنها أبداً .

الإيضاح

(الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون) أى الله ينشئ جميع الخلق بقدرته وهو منفرد بإنشائه من غير شريك ولا ظهير ، ثم يعيده خلقاً جديداً بعد إفناؤه وإعدامه كما بدأه خلقاً سوياً ولم يك شيئاً ، ثم إليه يردون فيحشرون لفصل القضاء بينهم ، فيجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا الحسن .

ثم بين ما سيحدث فى هذا اليوم من الأهوال للأشقياء والنعيم والحبور لل سعداء ، فقال :

(ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) أى ويوم تجيء الساعة التى فيها يفصل الله بين خلقه بعد نشرهم من قبورهم وحشرهم إلى موقف الحساب - يسكت الذين أشركوا بالله واجترأوا فى الدنيا مساوى الأعمال ، إذ لا يجدون حجة يدفعون بها عن أنفسهم ما يحل بهم من النكال والوبال .

ولما كان الساكت قد يغنيه غيره عن الكلام نفي ذلك بقوله :

(ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) أى ولم يكن هؤلاء الجرمين من شركائهم الذين كانوا يتبعونهم على ما دعوهم إليه من الضلالة - شفعاء يستنقذونهم من عذاب الله ، وإذ ذاك يستبين لهم جهلهم وخطوهم إذ قالوا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله .
ولما ذكر سبحانه حال الشفعاء معهم ذكر حالهم مع الشفعاء بقوله :

(وكانوا بشركائهم كافرين) أى وجحدوا ولاية الشركاء وتبرءوا منهم كما جاء فى آية أخرى « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا لَمَا كَرِهُوا مِمَّنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنْهُمْ » .
ثم بين بعدئذ أن الله يميز الخبيثين من الطيبين فقال :

(ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) أى ويوم تحبىء الساعة التى يحشر فيها الخلق إلى الله يومئذ يتفرق أهل الإيمان بالله وأهل الكفر به ؛ فأما أهل الإيمان به فيؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، وأما أهل الكفر فيؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، قال قتادة : فرقة والله لا اجتماع بعدها .

ثم بين كيف يكون كل من الفريقين فقال :

(فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) أى فأما الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بما أمرهم الله به وانتهوا عما نهاهم عنه ، فهم فى رياض الجنات يمرحون وبألوان الزهر والسندس الأخضر يتمتعون ، ويتلذذون بالسماع والعيش الطيب الهنى .

(وأما الذين كفروا وكذبوا بآخرة فأولئك فى العذاب محضرون)
أى وأما الذين جحدوا توحيد الله وكذبوا رسله وأنكروا البعث بعد النيات والنشور للدار الآخرة فأولئك فى عذاب الله محضرون لا يغيثون عنه أبدا .

فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخَيِّمُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩).

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه حالى الفريقين المؤمنين الذين يعملون الصالحات ،
والكافرين المكذبين بالآيات ، وما أعد لكل منهما من الثواب والعقاب - أرشد إلى
ما يفضى إلى الحال الأولى وينجى من الثانية ، وهو تنزيه الله عز وجل عن كل
ما لا يتيق به ، وحمده ، والثناء عليه بما هو أهل له من صفات الجلال والكمال .

ولما كان الإنسان حين الإصباح يخرج من حال النوم التى هى أشبه بالموت منها
إلى اليقظة وكأنها حياة بعد موت - أتبع ذلك بذكر الموت والحياة حقيقة .

الإيضاح

(فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) أى نزهوا الله سبحانه فى وقت
المساء حين إقبال الليل وظلامه ، وحين الصبح حين إسفار النهار بضيائه .

(وله الحمد فى السموات والأرض) أى والله هو المحمود من جميع خلقه
فى السموات من سكانها من الملائكة ، وفى الأرض من أهلها من أصناف
خلقها فيها .

(وعشيا وحين تظهرون) أى ونزهوه وقت العشى حين اشتداد الظلام ، ووقت
الظهيرة حين اشتداد الضياء كما قال : « وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا » ،
وقال : « وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى » .

وتخصيص هذه الأوقات من بين سائرهما لما فيها من التبدل الظاهر فى أجزاء الزمن ، والانتقال من حال إلى أخرى على صورة واضحة ، كالانتقال من الضياء إلى الظلام فى المساء ، ومن الظلام إلى النور فى الإصباح ، ومن ضياء تام وقت الظهيرة إلى اضمحلال لذلك الضياء وقت العشى ، وهكذا .

ثم بين صفات ذلك الإله المستحق للثناء والتقدير ، فقال :

(١) (يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) فهو القادر على خلق الأشياء المتقابلة بعضها من بعض ، فيخرج الإنسان والطائر من النطفة والبيضة . كما يفعل ضد هذا ، فيخرج النطفة والبيضة من الإنسان والطائر ، وفى هذا دلالة على كمال قدرته ، وبديع صنعه ، وكون البيضة والنطفة كائن حى لا تعرفه العرب ولا تعترف به .

(٢) (ويحيى الأرض بعد موتها) أى ويحيى الأرض بالمطر ، فتخرج النبات الغض بعد أن كانت صعيداً جرساً .

ونحو الآية قوله : « وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا قَدْ ذُقْتُهُ يَا كُفُلُونَ » وقوله : « وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » .

(٣) (وكذلك تخرجون) أى وكما سهل حركة النائم الساكن بالانتباه ، وإنماء الأرض بإنباتها بعد موتها - يسهل عليه إحياء الميت وإخراجه من قبره

لفصل القضاء

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠)
وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ (٢١) .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بتنزيهه عن الأسواء والنقائص التى لا تنبىق بجلاله وكماله ، ثم ذكر أن الحمد له على خلقه جميع الموجودات ، وبين قدرته على الإماتة والإحياء بقوله : (وكذلك نخرجون) ، ذكر هنا أدلة باهرة ، وحججا ظاهرة على البعث والإعادة ، ومنها : خلقكم من التراب الذى لم يشتم رائحة الحياة ، ولا مناسبة بينه وبين ما أُنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم ، ثم إبقاء نوعكم بالتوالد ، فإذا مات الأب قام ابنه مقامه ، فتبقى سلسلة الحياة متصلة بهذا النوع وبسائر الأنواع الأخرى بالازدواج والتوالد إلى الأجل الذى قدره الله لأمد هذه الحياة .

الإيضاح

(ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) أى ومن حججه الدالة على أنه القادر على ما يشاء من إنشاء وإفناء ، وإيجاد وإعدام : أن خلقكم من تراب بتغذيتكم إما بلحوم الحيوان وألبانها وأسمانها ، وإما من النباتات ؛ والحيوان غذاؤه النباتات ، والنبات من التراب ، فإن النواة لا تصير شجرة إلا بالتراب الذى ينضم إليه أجزاء مائية تجعلها صالحة للتغذية ، ثم بعد إخراجكم منه إذا أنتم بشر تنتشرون فى الأرض ، تنصرفون فيها فى أغراضكم المختلفة ، وأسفاركم البعيدة تكدحون وتجدون لتحصيل أرزاقكم من فيض بكم وواسع نعمه عليكم .

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) أى ومن آياته الدالة على البعث والإعادة : أن خلق لكم أزواجا من جنسكم لتأسوا بها ، وجعل بينكم المودة والرحمة لتدوم الحياة المنزلية على أتم نظام .

ونحو الآية قوله : « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أى إن فيها ساف من خلقكم من تراب وخلق أزواجكم من أنفسكم ، وإبقاء المودة والرحمة - لعبرة لمن تأمل فى تضاعيف تلك الأفعال المبنية على الحكم والمصالح ، فهى لم تخلق عبثاً ، بل خلقت لأغراض شتى تحتاج إلى الفكر حتى يصل إلى معرفتها ذوو الذكّن والعقل الراجح .

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَإِيتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ (٢٣) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر دلائل وجوده بما ذكره فى خلق الإنسان - أعقبه بذكر الدلائل فى الأكوام المشاهدة والعوالم المختلفة ، وفى اختلاف ألوان البشر ولغاتهم التى لا حصر لها ، مع كونهم من أب واحد وأصل واحد ، وفيما يشاهد من سباتهم العميق ليلاً ، وحركتهم السريعة نهاراً فى السعى على الأرزاق ، والجهد والسكد فيها .

الإيضاح

(ومن آياته خلق السموات والأرض) أى ومن دلائل وجوده وآيات قدرته : خلقه السموات المزدانة بالكواكب والنجوم الثوابت والسيارة المرتفعة السموك الواسعة الأرجاء ، وخلق الأرض ذات الجبال والوديان ، والبحار والغفار ، والحيوان والأشجار . (واختلاف ألسنتكم وألوانكم) أى واختلاف لغاتكم اختلافاً لا حد له ، فمن عربية إلى فرنسية ، إلى إنجليزية ، إلى هندية ، إلى صينية ، إلى نحو ذلك مما لا يعلم حصره إلا خالق اللغات ، واختلاف أنواعكم وأشكالكم اختلافاً به أمكن التمييز بين الأشخاص فى الأصوات والألوان ، وهذا مما لا غنى عنه فى منازع الحياة ومختلف

أغراضها ، فكثيرا ما تميز الأشخاص بالأصوات ، وبذا نعرف الصديق من العدو ،
فنتخذ ما يلزم من العدة لكل منهما ، كما نميزها بلغاتها ، فنعرف من أى الأجناس هى .
(إن فى ذلك لآيات للعالمين) أى إن فى ذكر الدلائل لآئحة لأولى العلم الذين
يفكرون فيما خلق الله ، فيعلمون أنه لم يخلق الخلق عبثا ، بل خلقه لحكمة بالغة فيها
عبرة لمن تذكر .

(ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله) أى ومن علامات قدرته
نومكم بالليل واستقراركم فيه ، حتى لا تكون حركة ولا حس ، وسعيكم للأرزاق نهارا
بمزاولة أسباب المعاش ووسائله .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) أى إن فى فعل الله ذلك لعبرا وأدلة لمن
يسمعون مواعظه فيتعظون بها ، ويفهمون حججه عليهم ، على أن صانع ذلك لا يعجزه
بعث العالم وإعادته .

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ
بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ
أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا
أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما يعرض للأنفس من الأوصاف - ذكر ما يعرض للأكوان
والآفاق ونشاهدته رأى العين الفينة بعد الفينة مما فيه العبرة لمن أذكر ، ونظر
فى العوالم نظرة متأمل معتبر فى بدائع الأكوان ليتوصل إلى معرفة مدبرها وخالقها
الذى أحسن كل شئ خلقه ثم هدى .

الإيضاح

(ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها) أى ومن آياته الدالة على عظم قدرته أنه يريكم البرق فتخافون مما فيه من الصواعق ، وتطمعون فيما يحلبه من المطر الذى ينزل من السماء ، فيحيي الأرض الميتة التى لازرع فيها ولا شجر .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) أى إن فى ذلك الذى سلف ذكره لبرهاناً قطعاً ، ودليلاً ساطعاً ، على البعث والنشور ، وقيام الساعة ، فإن أرضاً هامدة لآيات فيها ولا شجر يحييها الماء فتتهز وتربو وتثبت من كل زوج بهيج : لهى المثال الواضح ، والدليل الأئح ، على قدرة من أحيائها على إحياء العالم بعد موته ، حين يقوم الناس لرب العالمين .

(ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) أى ومن الحجج الدالة على قدرته على ما يشاء قيام السماء والأرض بلا عتمد ، بل بإقامته وتديره ؛ فالأرض تجري ، والسحاب يجري حولها ، والهواء تبع لها ، وهى والقمر والسيارات يجريين حول الشمس ، والشمس ولواحقها يجريين حول كواكب أخرى ، لانعم عنها إلا هذه الآثار العلمية الضئيلة .

وقصارى ذلك : إن إمساك هذه العوالم وإقامتها وتديرها وإحكامها من الآيات التى ترشد إلى إله مدبرها .

(ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) أى ولا يزال الأمر هكذا حتى ينتهى أجل الدنيا ، ويختل نظام العالم ، فتبدل الأرض غير الأرض ، وتذك الجبال دكا ، وحينئذ تخرجون من قبوركم سرا حينما يدعوكم الداعي .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » وقوله : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » وقوله : « إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً . فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ » .

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي
يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على الوحدة، وهى الأصل الأول ، وعلى القدرة على الحشر ،
وهى الأصل الثانى - أعقب ذلك بهاتين الآيتين وجعلهما كأنفةيجة لما سلف .

الإيضاح

(وله من فى السموات والأرض كل له قانتون) أى إن من فى السموات والأرض
من خلق الله مطيع له فيما أراد به من حياة أو موت ، من سعادة أو شقاء ، من حركة
أو سكون ، إلى أشباه ذلك ، وإن عصاه بقوله أو فعله فيما يكسبه باختياره ويؤثره
على غيره .

ثم كرر ذكر البعث والإعادة مرة أخرى لشدة إنكارهم له فقال :

(وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) أى وهو الذى يبدأ الخلق
من غير أصل له فينشئه بعد أن لم يكن شيئاً ، ثم يفنيه بعد ذلك ، ثم يعيده كما يبدأه ،
وذلك أسهل عليه على حسب ما يدور فى عقول المخاطبين من أن من فعل شيئاً مرة
كانت الإعادة أسهل عليه .

والخلاصة : إن الإعادة أسهل على الله من البدء بالنظر لما يفعله البشر مما يتقرون
عليه ، فإن إعادة شئ من مادته الأولى أهون عليهم من إيجاد ابتداء ، والمراد
بذلك التقريب لعقول الجاهلة المنكرين للبعث ، وإلا فكل المكنات بالنظر إلى
قدرته سواء .

وقصارى ذلك : إنه أهون عليه بالإضافة إلى أعمالكم وبالقياس إلى أقداركم .
 روى عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى « كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى ، فبقوله : إن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياى ، فبقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

(وله المثل الأعلى فى السموات والأرض) أى وله الوصف البديع فى السموات والأرض ، وهو أنه لا إله إلا هو ليس كمثله شئ تعالى عن الشبيه والنظير .
 (وهو العزيز الحكيم) أى وهو العزيز الذى لا يغالب ولا يُغلب ، الحكيم فى تدبير خلقه وتصريف شئونه فيما أراد على وفق الحكمة والسداد .

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مَلَكَةٌ
 أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ
 كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ
 اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ
 مِنْ نَّاصِرِينَ (٢٩) .

شرح المفردات

من أنفسكم : أى منتزعا من أحوال أنفسكم التى هى أقرب الأمور إليكم وأعرفها عندكم ، ملكة أيمانكم : أى مماليتكم وعبيدكم ، فيما رزقناكم : أى من العقار والمنقول ، فأنتم فيه سواء : أى تتصرفون فيه كتصرفكم ، تخافونهم : أى تخافون أن يستبدوا بالتصرف فيه ، كخيفتكم أنفسكم : أى كما يخاف الأحرار بعضهم من

بعض ، نفصل الآيات : أى نبينها بالتمثيل الكاشف للمعانى ، فمن يهذى من أضل الله ؟ : أى لأحد يهديهم ، وما لهم من ناصرين : أى ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير .

المعنى الجملى

بعد أن بين القدرة على الإعادة بإقامة الأدلة عليها ، ثم ضرب لذلك مثلاً ؛ أعقب ذلك بذكر المثل على الوجدانية بعد إقامة الدليل عليها .

الإيضاح

(ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ؟) أى بين الله تعالى إثبات وحدانيته بما يكشفها من ذلك المثل المنتزع من أحوال أنفسكم وأطوارها التى هى أقرب الأمور إليكم ، وبه يستبين مقدار ما أنتم فيه من الضلال بعبادة الأوثان والأصنام ، فتسرعون إلى الإقلاع عن عبادة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

هل أنتم أيها الأحرار تشركون معكم عبيدكم فى أموالكم ، فيساوونكم فى التصرف فيها ؟ لا ، لا يتصرفون فيها إلا بإذنكم خوفاً من لائمة تلحقهم منكم ، كما يخاف بعضهم بعضاً ، وإذا كنتم لاترضون بذلك لأنفسكم وأنتم وهم عبيد الله ، فكيف ترضون لرب الأرباب أن تجعلوا عبيده شركاء له ؟ .

وهذا مثل ضربه الله للمشركين به ، العابدين معه غيره ، الجاعلين له شركاء ، وهم معترفون بأن شركاءه من الأصنام والأوثان عبيده وملكه ، إذ كانوا يقولون فى التلبية والدعاء ، حين أداء مناسك الحج : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريكاً هولك ، تملكه وما ملك .

وخلاصة المثل : إن أحدكم يأنف أن يساويه عبيده فى التصرف فى أمواله ، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه ؟ .

(كذلك تفصل الآيات لقوم يعقلون) أى ومثل هذا التفصيل البديع بضرب الأمثال الكاشفة للعانى المقرية لها إلى العقول ، إذ تنقل المعقول إلى المحسوس التى هى به الصق ، ولإدراكه أقرب - تفصل حججنا وآياتنا لقوم يستعملون عقولهم فى تدبر الأمثال واستخراج مغزيتها ومراميها للوصول إلى الأغراض التى لأجلها ضربت ، ولمشها استعملت ، فيستبين الرشد من الغى والحق من الباطل ، ولأمر ما كثرت الأمثال فى جلاء الحقائق ، وإيضاح ما أشكل منها على الناظرين .

ثم بين أن المشركين إنما عبدوا غيره سفها من أنفسهم وجهلا لا يبرهان قد لاح لهم فقال :

(بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم) أى ولكن الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بالله ، اتبعوا أهواءهم جهلا منهم لحق الله عليهم ، فأشركوا الآلهة والأوثان فى عبادته ، ولو قلبوا وجوه الرأى واستعملوا الفكر والتدبر لربما ردهم ذلك إلى معرفة الحق ووصلوا إلى سبيل الرشد ، ولكن أنى لهم ذلك ؟

(فمن يهدى من أضل الله ؟) أى فمن يهدى من خلق الله فيه الضلال وجعله كاسبا له باختياره ، لسوء استعداده وميله بالفطرة إليه وعلم الله فيه ذلك ؟

(وما لهم من ناصرين) أى وليس لهم ناصر ينقذهم من بأس الله وشديد انتقامه إذا حل بهم ، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) .

شرح المفردات

أقم : من أقام العود وقومَه إذا عدَّله ؛ والمراد الإقبال على دين الإسلام والثبات عليه ، حنيفا : من الحنف وهو الميل فهو مائل من الضلالة إلى الاستقامة ، والفطرة : هى الحال التى خلق الله الناس عليها من القبلية للحق والتهيؤ لإدراكه ، وخلق الله : هو فطرته المذكورة أولا ، القيم : أى المستوى الذى لا عوج فيه ولا انحراف ، منيبين إليه : أى راجعين إليه بالتوبة وإخلاص العمل ، من قولهم : تاب بوبه ونوبه إذا رجع مرة بعد أخرى ، واتقوه : أى خافوه ، فرقوا دينهم : أى اختلفوا فيما يعبدونه على حسب اختلاف أهوائهم ، شيعة : أى فرقا تشايح كل فرقة إمامها الذى مهد لها دينها وقرره ووضع أصوله .

المعنى الجملى

بعد أن عدد سبحانه البينات والأدلة على وحدانيته ، وأثبت الحشر وضرب لذلك المثل ، وسلى رسوله ووطن عزيمته على اليأس من إيمانهم ، لأن الله قد ختم على قلوبهم ، فلا مخلص لهم من ذلك ولا أحد ينقذهم مما هم فيه ، لا أنت ولا غيرك ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات - أعقب ذلك بأمره بالاهتمام بنفسه وعدم المبالاة بأمرهم وإقامة وجهه لهذا الدين غير ملتفت عنه بمنة ولا يسرة ، فهو فطرة الله التى خلق العقول معترفة بها .

الإيضاح

(فأقم وجهك للدين حنيفا) أى فسدد وجهك نحو الوجه الذى وجهك إليه ربك لطاعته ، وهو الدين القيم دين الفطرة ، وميل عن الضلال إلى الهدى .
(فطرة الله التى فطر الناس عليها) أى الزموا خلقة الله التى خلق الناس عليها ، فقد جعلهم بفطرتهم جانحين للتوحيد وموقنين به ، لكونه موافقا لما يهدى إليه

العقل ويرشد إليه صحيح النظر كما ورد فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم :
 « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه
 أو يمجسانه كما تُنتج البهيمة جماء » (مستوية لم يذهب من بدنها شيء) هل
 تحسون فيها من جدعاء » (مقطوعة الأذن أو الأنف) .

ثم علل وجوب الامتثال بقوله :

(لا تبدل خلق الله) أى لا ينبغي أن تبدل فطرة الله أو تغير ، وهذا خير
 فى معنى النهى كأنه قيل : لا تبدلوا دين الله بالشرك .

بيان هذا أن العقل الإنسانى كصحيفة بيضاء قابلة لنقش ما يراد أن يكتب فيها
 كالأرض تقبل كل ما يغرس فيها ، فى تثبت حظلا وفاكهة ، ودواء وسمًا ،
 والنفس ترد عليها الديانات والمعارف فتقبلها ، وأخير أغب عليها من الشر ، كما أن
 أغلب نبات الأرض يصلح للرعى والقليل منه سم لا ينتفع به ، ولا تغير بالآراء
 الفاسدة إلا بمعلم يعلمها ذلك كالأبوين اليهوديين أو النصرانيين ، ولو ترك الطفل
 وشأنه لعرف أن الإله واحد ولم يسقه عقله إلى غير ذلك ، فإن البهيمة لا تتجدع إلا بمن
 يبدعها من الخارج ، هكذا صحيفة العقل لا تغير إلا بمؤثر خارجي يضلها بعد علم .

(ذلك الدين القيم) أى ذلك الذى أمرتكم به من التوحيد هو الدين الحق الذى
 لا عوج فيه ولا انحراف .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك لعدم تدبرهم فى البراهين الواضحة الدالة
 عليه ، ولو علموا ذلك حق العلم لاتبعوه وما صدوا الناس عن الاقتباس من نوره ،
 وما سدوا الحجب التى تحجب عنهم ضياءه .

(منيبين إليه واتقوه) أى فأقم وجهك أيها الرسول أنت ومن اتبعك حنفاء لله
 منيبين إليه ، وخافوه ، وراقبوا أن تفرطوا فى طاعته وترتكبوا معصيته .

(وأقيموا الصلاة) أى وداوموا على إقامتها ، فى عمود الدين ، وهى التى تذكر
 المؤمن ربه ، وتجعله يناجيه فى اليوم خمس مرات ، وتحول بينه وبين الفحشاء

والمنكر ، لأنها تعود النفس الخضوع والإخبات إليه ، ومراقبته في السر والعلن ، كما جاء في الحديث : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(ولا تكونوا من المشركين) به غيره ، بل أخلصوا له العبادة ولا تريدوا بها سواه ، وحافظوا على امتثال أوامره واجتناب نواهيه .

ثم بين صفات هؤلاء المشركين بقوله :

(من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا) أى من المشركين الذين بدلوا دين الفطرة وغيره ، وكانوا فى ذلك فرقا مختلفة كلها جانب الحق ، وركنت إلى الباطل ، كاليهود والنصارى والمجوس وعبداء الأوثان ، وسائر الأديان الباطلة .

والخلاصة : إن أهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على مذاهب ونحل باطلة ، كل منها تزعم أنها على شىء .

(كل حزب بما لديهم فرحون) أى كل طائفة من هؤلاء الذين فارقوا دينهم الحق ، وأحدثوا من البدع ما أحدثوا فرحون بما هم به مستمسكون ، ويحسبون أن الصواب لا يعدوهم إلى غيرهم من النحل والمذاهب الأخرى .

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) .

المعنى الجملى

لما أرشد إلى التوحيد وأقام الأدلة عليه ، وضرب له المثل ؛ أعقبه بذكر حال المشركين يعرفون بها ، وسياء لا يتكرونها ، وهى أنهم حين الشدة يقضرون إلى ربهم ، وينيبون إليه ، فإذا خصبوا منها رجعوا إلى شئيتهم الأولى ، وأشركوا به الأوثان والأصنام ، فليضلوا ماشاءوا ، فإن لهم يوماً يرجعون فيه إلى ربهم ، فيحاسبهم على ما اجترحوا من السيئات ، وليتهم اتبعوا ذلك عن دليل ، حتى يكون لهم شبه العذر فيما يفعلون ، بل هو الهوى المطاع ، والرأى المتبع ، ثم ذكر حال طائفة من المشركين دون سابقينهم ، وهم من تكون عبادتهم لله رهن إصابتهم من الدنيا ، فإن آتاهم ربهم منها رضوا ، وإذا منعوا منها سخطوا وقنطوا ، وقد كان عليهم أن يعلموا أن بسط النعمة وإقترارها بيد الله ، وقد جعل لذلك أسباباً متى سلكها فاعلها ، وصل إلى ما يريد ، وليس علينا إلا أن نطمئن نفوسنا إلى ما يكون ، فكله بقدر الله وقضائه ، وعلينا أن نستسلم له ونعمل ما طلب إلينا عمله من الأخذ فى الأسباب والجهد فى العمل جهد الطاقة .

الإيضاح

(وإذا مس الناس ضرّ دعوا ربهم منيبين إليه) أى وإذا مس هؤلاء المشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر - ضرّ فأصابهم جذب وقحط أخلصوا لربهم التوحيد وأفردوه بالتضرع إليه واستغاثوا به منيبين إليه تائبين إليه من شركهم وكفرهم .

(ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بر ربهم يشركون) أى ثم إذا كشف ربهم عنهم ذلك الضر وفرج عنهم ، وأصابهم برحاء وخصب وسعة ، إذا جماعة منهم يشركون به ، فيعبدون معه الآلهة والأوثان .

والخلاصة : إنهم حين الضر يدعون الله وحده لا شريك له ، وإذا أسبغ عليهم

نعمه إذا فريق منهم يشركون به سواء ويعبدون معه غيره .
ثم أمرهم أمر تهديد كما يقول السيد لعبدته متوعدا إذا رآه قد خالف أمره :
اعصنى ما شئت .

(ليكفروا بما آتيناكم) أى فليجحدوا نعى عليهم وإحسانى إليهم كيف شاءوا ،
فإن لهم يوما نحاسهم فيه ، يوم يؤخذون بالنواصي ، ويحرقون بالسلاسل والأغلال ،
ويقال لهم : ذوقوا ما كنتم تعملون .

وهكذا الأمر بعده مسوق لمثل ذلك وهو :
(فتمتعوا) أى فتمتعوا بما آتيناكم من الرخاء ، وسعة النعمة فى الدنيا ، فما هي
إلا أوقات قصيرة تمضى ككلح البصر .

ثم هددهم أشد التهديد بقوله :
(فسوف تعلمون) إذا وردتم على ما يصيبكم من شديد عذابى ، وعظيم عقابى
على كفركم بى فى الدنيا .

روى عن بعض السلف أنه قال : والله لو توعدتى حارس درب خلفت فيه ،
فكيف والمتوعد هو الله الذى يقول للشيء كن فيكون ؟

ثم أنكر على المشركين ما اختلقوه من عبادة غيره بلا دليل ، فقال :
(أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) أى أنزلنا على هؤلاء
الذين يشركون فى عبادتنا الآلهة والأوثان كتابا بتصديق ما يقولون ، ويرشد إلى
حقيقة ما يدعون .

وإجمال القصد : إنه لم يُنزّل بما يقولون كتابا ولا أرسل به رسولا ، وإنما هوشىء
افتعلوه اتباعا لأهوائهم .

ثم ذكر طبيعة الإنسان وجبلته إلا من عصمه الله فقال :
(وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم
(٤)

يقنطون) أى إن الإنسان قد ركب الله فى طبيعته الفرح والبطر حين تصيبه النعمة ، كما حكى الله عنه : « لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ » ، وإذا أصابته شدة يجوله بسنن الحياة وعصيانه أوامر الدين قنط من رحمة الله وأيس منها ، فهو كما قيل :
كحمار السوء إن أعفته رَمَحَ الناس وإن جاع نهق

« إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فإنهم راضون بما قسمه لهم ربهم من خير أو شر ، علما منهم أن الله حكيم ، لا يفعل إلا ما فيه خير للعبد ، وفى الحديث الصحيح : « عجباً للؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

ثم أنكر عليهم ما يلحقهم من اليأس والقنوط لدى الضراء ، فقال :
(أو لم يروا أن الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟) أى ألم يشاهدوا ويعلموا أن الأمرين من الله ، فما بالهم لم يشكروا فى السراء ، ويحتسبوا فى الضراء ، كما يفعل المؤمنون ، فإن من فطر هذا العالم لا ينزل الشدة بعباده إلا لما يعود عليهم بالخير كالتأديب والتذكير والامتحان ، فهو كما يربى عباده بالرحمة يربيه بالتعذيب ؛ فلو أنهم شكروه حين السراء وتضرعوا إليه فى الضراء لكان خيراً لهم .

والخلاصة : إنه يجب عليهم أن ينيبوا إليه فى الرخاء والشدة ، ولا يعوقهم عن الإنابة إليه نعمة تبطّروهم ، ولا شدة تحدث فى قلوبهم اليأس ، بل يكونون فى السراء والضراء منيبين إليه .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فى ذلك البسط على من بسط له ، والقدر على من قدر عليه دلالة واضحة لمن صدق بحجج الله إذا عاينها .

فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبِّكُمْ فَلَا يَزِيدُ النَّاسَ إِلَّا بُعْثًا وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تَرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ

اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعْمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) .

شرح المفردات

حقه : هو صلة الرحم والبر بالقرىب ، والمسكين : هو المعدم الذى لا مال له ، وابن السبيل : هو المسافر الذى احتاج إلى مال وعزٍّ عليه إحضاره من بلده ، ووسائل المواصلات الحديثة الآن تدفع مثل هذه الحاجة ، ربا : أى زيادة ، والمراد بها الهدية التى يتوقع بها مزيد مكافأة ، فلا يربو عند الله : أى فلا يبارك فيه ، والمراد بالزكاة الصدقة ، المضعفون : أى الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر - أردف ذلك ببيان أنه يحب الإحسان على ذوى القربى وذوى الحاجات من المساكين وأبناء السبيل ، فإن الله إذا بسط الرزق لم ينفصه الإنفاق ، وإذا قدر لم يزد بالإمساك :

إذا جاءت الدنيا فجُدَّ بها على الناس طُرًّا إنها تنقلب
فلا الجود يفتنيها إذا هوى أقبلت ولا البخل يبقئها إذا هوى تذهب

الإيضاح

(فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) أى أعط أيها الرسول ومن تبعك من المؤمنين : الأقارب الفقراء جزءا من مالك صلة للرحم وبراً بهم ، لأنهم أحق الناس بالشفقة ؛ ومن ثم حكى عن أبى حنيفة أنه استدل بهذه الآية على وجوب النفقة على كل ذى رحم محرم ذكر أو أنثى إذا كان فقيراً عاجزاً عن الكسب .

وكذا المسكين الذى لا مال له إذا وقع فى ورطة الحاجة ، فيجب على من عنده مقدرة دفع حاجته ، وسدّ عوّزه .

ومثله المسافر البعيد عن ماله ، الذى لا يستطيع إحضار شئ منه لانتطاع السبل به فيجب مساعدته بما يدفع خصاصته ، حتى يصل إلى مأمنه ، وسرعة طرق المواصلات الآن تدفع هذه الضرورة .

(ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون) أى ذلك الإعطاء لمن تقدم ذكرهم ، من فعل الخير الذى يتقبله الله ، ويرضى عن فاعليه ، ويعطيهم جزيل الثواب ، وأولئك قد ربّحوا فى صفقتهم ، فأعطوا ما ينفعهم ، وحصلوا على ما يبقى من النعيم المقيم ، والخير العميم .

وإنما كان هذا العمل خيراً لما فيه من تكافل الأسرة الخاصة ومعانها فى السراء والضراء ، وتعاون الأسرة العامة ، وهى الأمة الإسلامية جمعاء ، كما جاء فى الحديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً » .

ولا يخفى ما لذلك من أثر فى تولد المحبة والمودة ، وفى التكاثر لدفع عوادي الأيام ومحن الزمان .

(وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله) أى ومن أهدى هدية يريد أن تردّ بأكثر منها ، فلا ثواب له عند الله ، وقد حرم الله ذلك على رسوله صلى الله عليه وسلم على الخصوص ، كما قال تعالى : « وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ » أى ولا تعط العطاء تريد أكثر منه .

روى عن ابن عباس أنه قال : الربا ربوان : ربا لا يصح وهو ربا البيع ، وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها وإضعافها ، ثم تلا هذه الآية .

وقال عكرمة : الربا ربوان : ربا حلال ، وربا حرام ؛ فأما الربا الحلال : فهو الذى يهدى ، يلتبس ما هو أفضل منه ؛ وعن الضحاك فى هذه الآية : هو الربا

الحلال الذى يُهْدَى ، ليثاب ما هو أفضل منه ، لاله ولا عليه ، ليس له أجر ، وليس عليه فيه إنثم .

(وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) أى ومن أعطوا صدقة يبتغون بها وجه الله تعالى خالصا ، فأولئك من الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء ، كما قال تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيَضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ؟ » ، وجاء فى الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « وما تصدق أحدكم بتمر أو فضيلة حتى تصير التمرة أعظم من أحد (جبل) » .

ولما بين أنه لازيادة إلا فيما يزيده ولاخير إلا فيما يختاره أكد ذلك بقوله :
(الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم) أى الله الذى لاتصح العبادة إلا له ، ولا ينبغى أن تكون لغيره ، هو الذى خلقكم ولم تكونوا شيئا ، ثم رزقكم ما به تقوم شئونكم فى هذه الحياة ، ثم يقبض أرواحكم فى الدنيا ، ثم يحييكم يوم القيامة للبعث .

ثم ونج هؤلاء المشركين الذين يعبدون الآلهة والأصنام ، التى لاتخلق ولا ترزق ولا تحي ولا تميت بقوله :

(هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ ؟) أى هل من آلهتكم وأوثانكم الذين جعلتموهم شركاء لله فى العبادة من يخلق أو يرزق أو ينشئ الميت يوم القيامة ؟ .

وإجمال المعنى : إن شركاءكم لا يفعلون شيئا من ذلك ، فكيف يعبدون من دون الله ؟ .

ثم برأ سبحانه نفسه عن هذه الفرية التى افتروها ، فقال :

(سبحانه وتعالى عما يشركون) أى تنزهه عن الشريك ، فهو الواحد الأحد ،
الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ
بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) .

شرح المفردات

البر : الفيافي والقفار ، ومواقع القبائل ، والبحر : المدن ، والعرب تسمى
الأمصار بحاراً لسمتها : كما قال سعد بن عبادة فى عبد الله بن أبى بن سؤل : ولقد أجمع
أهل هذه البَحْيرة (المدينة) ليتوَّجوه .

وقال ابن عباس : البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر ، والبحر ما كان
على شط نهر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن المشركين عبدوا مع الله سواه ، وأشركوا به غيره ، والشرك
سبب الفساد ، كما يرشد إلى ذلك قوله : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » -
أعقب ذلك ببيان أن الناس قد انتهكوا حرمت الله واجتروا المعاصى ، وفشا بينهم
الظلم والطمع ، وأكل القوي مآل الضعيف ، فصب عليهم ربك سوط عذابه ،
فكثرت الحروب واقتن الناس فى أدوات التدمير والإهلاك ، فن غائصات فى البحار
تهلك السفن الماخرة فيها ، إلى طائرات فاذقات للحمم والمواد المحرقة ، إلى مدافع
تحصد الناس حصدا ، إلى دبابات سميقة الدروع تهد المدن هدا ؛ وما الحرب القائمة

الآن إلا مثال الوحشية الإنسانية ، والمجازر البشرية التى سلبت الله فيها العالم بعضه على بعض ، فارتكب المظالم ، واجترح المآثم ، والإنسان فى كل عصر هو الإنسان .
وكما أهلك الله الكافرين قبلهم بكفرهم وظلمهم ، يهلك الناس بشؤم معاصيهم وفسادهم ، فيجمعوا من سبقهم مثلاً لهم ، ليتذكروا عقاب الله وشديد عذابه للمكذبين .

الإيضاح

(ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون) أى ظهر الفساد فى العالم بالحروب والغارات ، والجيوش والطائرات ، والسفن الحربية والغواصات ، بما كسبت أيدي الناس من الظلم وكثرة المظالم ، وانتهاك الحرمات ، وعدم مراقبة الخلاق ، وطرح الأديان وراء ظهورهم ، ونسيان يوم الحساب ، وأطاعت النفوس من عقالها ، وعانت فى الأرض فساداً ، إذ لا رقيب من وازع نفسى ، ولا حسيب من دين يدفع عاديتها ، ويمنع أذاها ، فأذاقهم الله جزاء بعض ما عملوا من المعاصى والآثام لعلهم يرجعون عن غيهم ، ويشوبون إلى رشدهم ، ويتذكرون أن هناك يوماً يحاسب الناس فيه على أعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فيخيم العدل على المجتمع البشرى ، ويشفق القوى على الضعيف ، ويكون الناس سواسية فى المرافق العامة ، وحاج المجتمع بقدر الطاقة البشرية .

و بعد أن بين أن ظهور الفساد كان نتيجة أفعالهم أرشدهم إلى أن من كان قبهم وكانت أفعالهم كأفعالهم ، فأصابهم بعذاب من عنده ، وصاروا مثلاً لمن جاء بعدهم ، عبرة لمن خلفهم ، قال :

(قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك : سيروا فى البلاد فانظروا إلى مساكن الذين كفروا بالله من قبلكم وكذبوا رسله ، كيف أهلكناهم بعذاب منا ، وجعلناهم عبرة لمن بعدهم ؟ .

ثم بين سبب ما حاق بهم من العذاب ، فقال :
 (كان أكثرهم مشركين) فما حل بهم من العذاب كان جزاء وفاقا لكفرهم
 بآيات ربهم ، وتسكذيبهم رسوله .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ
 يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ
 يَهْدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
 الْكَافِرِينَ (٤٥) .

شرح المفردات

لامردله : أى لا يقدر أحد أن يرده ، يصدعون : أى يتصدعون ويتفرقون ، كما
 قال متم بن نويرة من قصيدة يرثى بها أخاه مالكا :
 وكذا كندماني جَذِيمة حِقْبَةً من الدهر حتى قيل لن يتصدعا (١)
 فأصبحنا كَأْنى ومالكا لطول اجتمع لم تبت ليلة معا
 يهدون : من مهد فراشه إذا وطأه ، حتى لا يصيبه ما ينقص عليه مرقد من بعض
 ما يؤذيه ، وتمهيد الأمور تسويتها وإصلاحها ، وتمهيد العذر بسطه وقبوله ، لا يجب
 الكافرين : أى إنه يبعثهم ، وسيعاقبهم على ما فعلوا .

(١) وجذيمة : هوجذيمة الأبرش . وكان ملكا في الحيرة ، وندبناه مالك وعفيل ، وبهما
 يصرب المتل في طول اللامدة ، فقد نادماه أربعين سنة ما أعادا عليه حديثا كان قتلاه من قبل .

المعنى الجملى

بعد أن نهى الكافر عن بقائه على حاله التى هو عليها خيفة أن يحل به سوء العذاب - أردف ذلك بأمر رسوله ومن تبعه بالثبات على ما هم عليه ، بعبادتهم الواحد الأحد ، قبل أن يأتى يوم الحساب ، الذى يتفرق فيه العباد ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، فمن كفر فعليه وبال كفره ، ومن عمل صالحاً فقد أعد لنفسه مهاداً يستريح عليه بما قدم من صالح العمل ، وسينال من فضل ربه وثوابه ورضاه عنه ما لا يخطر له ببال ، ولا يدور له فى حسابان .

والكافر سيلقى فى هذا اليوم العذاب والفكال ، لأن ربه يبغضه ويمقتته جزاء ما دسّ به نفسه من سىء العمل .

الإيضاح

(فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لامرّ ذله) أى فاسلك أيها الرسول الكريم الطريق الذى رسمه لك ربك بطاعته ، واتباع نهجه القويم ، الذى لا عوج فيه ولا أمت ، من قبل أن يحىء ذلك اليوم الذى لارادّ له ، وهو يوم الحساب الذى كتب الله مجيئه وقدره ، وما قدر لا بد أن يكون .

ثم ذكر حال الناس يومئذ ، فقال :

(يومئذ يصدعون) أى يومئذ يتفرق الناس على حسب أعمالهم ، فقريق فى الجنة يؤتى ثمرة عمله ، وفريق يزجى إلى النار بما اجترح من الآثام ، وبما ران على قلبه مما كسبت يده .

ثم بين أن ما ناله كل منهما من الجزاء كان نتيجة حتمية لعمله فقال :

(من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهّدون) أى من كفر بالله ودسّ نفسه بما عمل من السيئات ، واجترح من الآثام ، فعليه وحده أوزار جحوده

وكفره بنعم ربه ، ومن عمل الصالحات وأطاع الله فيما به أمر وعنه نهى ، فقد أعد لنفسه العدة ، ووطأ لنفسه الفراش حتى لا يقض عليه مضجعه ، ويقع فى عذاب السعير .

ثم بين العلة فى تفرقهم ، فقال :

(ليجرى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) أى إنهم يتفرقون ليجازى المؤمنين بالحسن من فضله ، فيكافئ الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما شاء الله من المنح والعطايا .

وذكر جزاء الكافرين بما يدل عليه قوله :

(إنه لا يحب الكافرين) أى إنه يبغضهم ، وذلك يستدعى عقابهم ، ولا يخفى ما فى ذلك من تهديد ووعيد .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ
وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) .

المعنى الجملى

لما ذكر أن الفساد ظهر بسبب الشرك والمعاصى نبههم إلى دلائل وحدانيته بما يشاهدونه أمامهم من إرسال الرياح بالأمطار ، وجرى الفلك حاملة لأنواع الثمار ، بما فيه غذاؤكم ، وقوت أنعامكم .

الإيضاح

(ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله) أى ومن الأدلة على وحدانيته ، والحجج القائمة على أنه رب كل شئ ، أن يرسل الرياح من حين إلى آخر مبشرات بالغيث الذى به تحيا

الأرض ويُنبِت الثمر والزرع ، فتأكلون منه ما لذ وطاب . وتعيشون أنتم ودوابكم وأنعامكم فضلا من ربكم ، ولتجربى السفن ماخرة للبحار ، حاملة للأقوات وأنواع الثمار ، منتقلة من قطر إلى قطر ، فيؤتى بما فى أقصى المعمور من الشرق إلى أقصاه فى الغرب ، والعكس بالعكس ، فلا تُحْتَجَبِ الثمرات والأقوات فى أماكنها وتكون وقفاً على قوم بأعيانهم .

(ولعلمكم تشكرون) أى وليعلمكم لشكره كفاء ما أسدى إليكم من نعمه الوفيرة ، وخيراته العظيمة ، التى لا تحصى قدرها ، كما قال : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) .

المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه البراهين الساطعة الدالة على الوحدةانية والبعث والنشور، ولم يرعوبها المشركون ، بل لجؤا فى طغيانهم يعمهون ، سلى رسوله صلى الله عليه وسلم فذكر له انك لست أول من كُذِّبَ ، فكثير من قبلك جاءوا أقوامهم بالبينات ، فلم تغنهم الآيات والنذر ، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، ونصرنا رسلنا ومن آمن بهم ، فلا تبتنس بما كانوا يعملون ، وانجريّن عليك وعلى قومك سنننا ، ولننتقم منهم ، ولننصرنك عليهم ، فالعاقبة للمتقين .

الإيضاح

(ولقد أرسننا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين) أى ولقد أرسلنا أيها الرسول رسلا من قبلك

إلى أقوامهم الكافرين ، كما أرسلناك إلى قومك عابدى الأوثان من دون الله ، فجاءوهم بالحجج الواضحة على أنهم من عند الله ، فكذبوهم كما كذبت قومك ، وردوا عليهم ما جاءوهم به من عنده ، كما ردوا عليك ما جئتهم به ، فانتقمنا من الذين اجترحوا الآثام ، واكتسبوا السيئات من أقوامهم ، ونجينا الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله ، ونحن فاعلوا ذلك بمجرى قومك ، وبمن آمن بك ، سنة الله التى شرعها لعباده ونحن نحمد لسنة الله تبديلا .

وهذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه ، وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد . أخرج الطبرانى وابن أبى حاتم وابن مردويه والترمذى عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » ثم تلا : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » .

ولا يخفى ما فى هذا من الوعد والبشارة بالظفر على أعدائه ، والوعيد والנקال ، والخسران فى المال ، لمن كذب به من قومه .

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيُبْسِطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لُمْبُسِينَ (٤٩) فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُغِيي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُخِيي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَنَطْلُوهَا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) .

شرح المفردات

تثير : أى تحرك ، يبسط : أى ينشر ، فى السماء : أى فى سمتها وجهتها ، كسفا : أى قطعاً ، والودق : المطر ، خلاله : واحدها خلل ، وهو الفرجة بين الشيثين ، لمبلسين : أى لايسين .

المعنى الجملى

عود على بدء . بعد أن سلى رسوله صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من أذى قومه ببيان أنه ليس بيدع فى الرسل ، فكائن من رسول قبله قد كذب ، ثم دالت الدولة على المكذبين ، ونصر الله رسوله والمؤمنين ، أعاد الكرة مرة أخرى ، فأتبع البرهان بالبرهان لإثبات الوحدانية ، وإمكان البعث والنشور بما يشاهد من الأدلة فى الآفاق مرشدة إلى قدرته ، وعظيم رحمته ، ثم بما يرى فى الأرض للموت من إحيائها بالمطر ، وهو دليل لأنح يشاهدونه ، ولا يغيب عنهم الحين بعد الحين ، والقيئة بعد القيئة ، أفليس فى هذا معتبر لمن اعتبر وادّكر ؟ .

الإيضاح

(الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون)
 أى الله الذى يرسل الرياح ، فتنشئ سحاباً فينشره ويجمعه جهة السماء تارة سائراً ، وأخرى واقفاً ، وحيناً قطعاً ، فترى المطر يخرج من وسطه ؛ فإذا أصاب به بعض عباده فرحوا به لحاجتهم إليه .

(وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين) أى وقد كانوا من قبل أن ينزل عليهم المطر قانطين يائسين من نزوله ، فلما جاءهم على فاقة وحاجة وقع منهم موقماً عظيماً .

وإخلاصة : إنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ، ومن قبل ذلك أيضا إذ هم ترقبوه فى ربّانه فتأخر ، ثم مضت فترة فترقبوه فيها فتأخر ، ثم جاء بغتة بعد اليأس والقنوط ، و بعد أن كانت أرضهم هامدة أصبحت وقد اهتزت وربّت وأنبتت من كل زوج بهيج .

(فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها) أى فانظر أيها الرسول أثر الغيث الذى أصاب به ما أصاب من النبات والأشجار والثمار ، وفيه الدليل الكافى على عظيم القدرة وواسع الرحمة .

و إذ قد ثبتت قدرته على إحياء الميت من الأرض بالغيث ثبتت قدرته على إحياء الأجسام بعد موتها وتفرقها وتمزقها إربابا . ومن ثم قال :

(إن ذلك لحى الموتى) أى إن ذلك الذى قدر على إحياء الأرض قادر على إحياء الأجسام من البعث .
ثم أكد هذا بقوله :

(وهو على كل شىء قدير) فلا يعجزه شىء ، فإحيائكم من قبوركم هين عليه ، كما قال : « قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » .

ثم ذمهم على تزلزلهم وسوء اضطرابهم ، فإذا أصابهم الخير فراحوا به ، وإن أصابهم السوء يئسوا وأبلسوا ، وانقطع رجاؤهم من الخير ، فقال :

(ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظفوا من بعده يكفرون) أى ولئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة على الزرع الذى زرعه ونما واستوى على سوقه ، فرأوه قد اصفر بعد خضرته ونضرتة - لظفوا من بعد ذلك الاستبشار والرجاء يحدون نعم الله السابقة عليهم .

ولا يخفى ما فى ذلك من المبالغة فى احتقارهم لتزلزلهم فى عقيدتهم ، إذ كان الواجب

عليهم أن يتوكلوا على الله فى كل حال ، ويلجئوا إليه بالاستغفار إذا احتبس عنهم المطر ، ولا يئسوا من روح الله ، ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم جل وعلا برحمته ، وأن يصبروا على بلائه إذا اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه ، لكنهم قد عكسوا الأمر ، وأبوا ما يجديهم ، وأتوا بما يؤذيهم .

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدِيرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه صنوف الأدلة ، ثم ضرب المثل على ترجيده ووجوب إرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، وصحة بعث الأجسام يوم القيامة ، ووعده وأوعده بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد ، ثم مازادهم دعاؤه الإعراضا ، ولا تكرار النصيح إلا إصراراً وعناداً - أردف هذا بتسيته عما يراه من التمدى فى الإعراض ، وكثرة العناد واللجاج ، فأبان أن هؤلاء كأنهم موتى ، فأتى لك أن تسمعهم ، وكأنهم صم ، فكيف يسمعون دعاءك حتى يستجيبوا لك ؟ إنما الذى يستجيب من يؤمن بآيات الله ، فإذا سمع كتابه تدبره وفهمه ، فيخضع لك بطاعته ويتذلل لمواعظ كتابه .

الإيضاح

(فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدِيرِينَ) أى إنك لا تقدر أن تفهم هؤلاء المشركين الذين قد ختم الله على أسماعهم ، فسيبهم فهم ما يتلى عليهم من مواظ تنزيله ؛ كما لا تقدر أن تفهم الموتى الذين سلبهم الله أسماعهم بأن تجعل لهم

أسماء ، ولاتقدر أن توفق هؤلاء الذين قد سلبهم الله فهم آيات كتابه لسماعها وفهمها ، كما لاتقدر أن تسمع الصم الذين قد سلبوا السمع - الدعاء إذا ولوا عنك مدبرين .

ثم بين أن الهداية والضلالة بيد الله لا بيد الرسول ، فقال :

(وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم) أى ليس فى طوقك أن تهدى من أضله الله ، فترده عن ضلالتة ، بل ذلك إليه وحده ، فإنه يهذى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه .

والخلاصة : إن هذا ليس عملك ، وما بعثت لأجله .

ثم أكد ماسلف بقوله :

(إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسامعون) أى لاتسمع السمع الذى ينتفع به سامعه فيتبعه ، إلا من يؤمن بآياتنا ، لأنه هو الذى إذا سمع كتاب الله تدبره وفهمه ، وعمل بما فيه ، وانتهى إلى حدوده التى حددها فيه ، فهو مستسلم خاضع له ، مطيع لأوامره ، تارك لنواهيه .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر دلائل الآفاق على وحدانيته أردفها بدلائل الأنفس ، فذكر خلق الآدمى ، وأطواره المختلفة من ضعف إلى قوة ، ثم انتكاسه وتغيير حاله من قوة إلى ضعف ، ثم إلى شيخوخة وهرم .

الإيضاح

(الله الذى خضعكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) يقول سبحانه محتجا على المشركين المنكرين للبعث : إن الذى خلقكم من نطفة وماء مهين ، فأنشأكم بشرا سويا ، ثم جعل لكم قوة على التصرف من بعد ضعف الصغر والطفولة . ثم حدث لكم الضعف بالهرم والكبر ، بعد أن كنتم أقوىاء في شبابكم - فادر أن يعيدكم مرة أخرى بعد البلى ، وبعد أن تكونوا عظاما نحرة .

والخلاصة : إن نقل الإنسان من أطوار الخلق حالا بعد حال من ضعف إلى قوة ، ثم من قوة إلى ضعف - دليل على قدرة الخالق الفعال لما يشاء ، الذى لا يعجزه شئ ، فى الأرض ولا فى السماء ، ولا يعجزه أن يعيدكم كرة أخرى .

(يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) أى يخلق ما يشاء من ضعف وقوة ، وشباب وشيب : وهو العليم بتدبير خلقه ، التدبير على ما يشاء ، لا يمتنع عليه شئ ، وأراده ، وهو كما يعمل ، هذا نادر على أن يمت خلقه ويحييهم إذا شاء .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أَوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) .

شرح المفردات

الساعة الأولى : يوم القيامة ؛ سميت بذلك لأنها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا ، ما لبثوا : أى ما أقاموا بعد الموت ، غير ساعة : أى غير قطعة قليلة من الزمان ؛ (٥)

يؤفكون : أى يهرفون عن الحق ، البعذرة : العذر ، يستعقبون : أى يطلب منهم إزالة عتب الله وغضبه عليهم بالتوبة والطاعة ، فإنه قد حق عليهم العذاب ، يقال : استعقبنى فلان فأعبتته : أى استرضانى فأرضيته .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى سبف بدء النشأة الأولى ، وذكر الإعادة والبعث ، وأقام عليه الأدلة فى شتى السور : وضرب له الأمثال - أردف ذلك بذكر أحوال البعث وما يجرى فيه من الأفعال والأقوال من الأشقياء والسعداء ليكون فى ذلك عبرة لمن يذكر .

الإيضاح

(ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) أى ويوم تجىء ساعة البعث فيبعث الله الخلق من قبورهم ، يقسم المجرمون الذين كانوا يكفرون بالله فى الدنيا ويكتسبون فيها الآثام ، إنهم ما أقاموا فى قبورهم إلا قليلا من الزمان ، وهذا استقلال منهم لمدة لبثهم فى البرزخ على طولها ، وهم قد ضلّوا فى الآخرة عن معرفة مدة مكثهم فى ذلك الحين .

(كذلك كانوا يؤفكون) أى كذبوا فى قولهم ما لبثنا غير ساعة ، كما كانوا فى الدنيا يحافون على الكذب وهم يعلمون . والكلام مسوق للتعجب من اغترارهم بزينة الدنيا وزخرفها ، وتحقير ما يتمتعون به من مباحيها ولذاتها ، كي يقلعوا عن العناد ويرجعوا إلى سبيل الرشاد ، وكأنه قيل : مثل ذلك الكذب العجيب كانوا يكذبون فى الدنيا اغتراراً بما هو قصير الأمد من اللذات ؛ وزخارف الحياة .

ثم ذكر توبيخ المؤمنين لهم وتهكمهم بهم :

(وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) أى وقال

الذين أتوا العلم بكتاب الله والإيمان بالله لأولئك المنكرين : لقد لبثتم من يوم ممانكم إلى يوم البعث في قبوركم .

وفي هذا رد عليهم وعلى ما حلفوا عليه ، وإطلاع لهم على الحقيقة .

ثم وصلوا ذلك بتقريرهم على إنكار البعث يقولهم :

(فهذا يوم البعث ولسكنكم كنتم لاتعلمون) أى فهذا هو اليوم الذى أنكرتموه فى الدنيا ، وزعتم أنكم لاتبعثون . وكنتم لاتعتقدون أنه حق ، وأنه واقع لامحالة ، تنفريطكم فى النظر ، ومن ثم استعجلتم الاستهزاء به .

ولما كانت الأدلة متظاهرة على أن الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء ، ذكر أن المعاذير لاتجدى فى هذا اليوم ، ولا يجابون إلى ما طلبوا من الرجوع إلى الدنيا ، لإصلاح ما فسد من أعمالهم ، فقال :

(فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون) أى فى هذا اليوم لاينفع هؤلاء المجرمين معاذيرهم عما فعلوا ، كقولهم : ما علمنا أن هذا اليوم كائن ولا أنا نبعث فيه ، ولاهم يرجعون إلى الدنيا ليتوبوا ، لأن التوبة لا تقبل فى هذا اليوم ، لأنه وقت جزاء لاوقت عمل ، وقد حقت عليهم كلمة ربهم .

والخلاصة : إنهم لايعاتبون على سيئاتهم ، بل يعاقبون عليها .

ونحو الآية قوله : « وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُقْتَبِينَ » .

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَأَعْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ اللَّهُ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر من الأدلة على الوحدانية والبعث ما ذكر ، وأعاد وكرر ، بشرى
البراهين ، وبديع الأمثال - أهدف ذلك بأنه لما يبق بعد هذا زيادة لمستزيد ، وأن
الرسول صلى الله عليه وسلم قد أدى واجبه ، وأن من طالب شيئاً بعد ذلك فهو معاند
مكابى . فإن من كذب الدلائل الواضح اللامح لا يصعب عليه تكذيب غيره
من الدلائل .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

الإيضاح

(ولقد خسر بنا الناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى وأقد أوضحناهم الحق
وضر بنا لهم الأمثال الدالة على وحدانية الله . وأبعث وصدق الرسول ، يستبينوا الحق
ويتبعوه ، لكنهم أعرضوا عن ذلك استكباراً وعناداً .

(ولئن جنتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن آتاهم إلا بدillon) أى وإن أتاهم
بالآيات لا يزيدهم إيماناً بها ، بل يعتقدون أنها سحر . فترى ، وما هى إلا أساطير الأولين .
ونحو هذا قوله : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ
كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » .

(كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) أى كذلك يمتنع الله على قلوب
الذين لا يعلمون حقيقة ما نأتىهم به من العبر والعظات ، والآيات المبينات ، فلا يفقهون
عن الله حججه ولا يفهمون عنه ما يتلى عليهم من آى كتابه ، لسوء استعدادهم ، ولما
ذسوا به أنفسهم من سوء القول والفعل ، فهم فى طغيانهم يعمهون .

ثم ختم السورة بأمر الرسول بالصبر على أذاهم ، وعدم الالتفات إلى عنادهم ، فقال :
(فاصبر إن وعد الله حق) أى فاصبر أيها الرسول على ما يذالك من أذى

المشركين ، بل منهم رسالة ربك ، فإن وعد الله وعدك من النصر عليهم وانظروهم . وتمكينك وتمكين أصحابك وأتباعك في الأرض - حق لاشك فيه ، وليكونوا لأعمالهم .

(ولا يستخفونك الذين لا يوقنون) أى ولا يحملوك الذين لا يوقنون بالميعاد ولا يصدقون بالبعث بعد الممات - على الخفة والقلق ، فيثبطوك عن أمر الله والقيام بما كلفك به من تبليغ رسالته .

وفي هذا إرشاد أنبياء صلى الله عليه وسلم . وتعليم له ، بأن يتلقى المسكره بصدر رحب . وسعة حلم .

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقي أن رجلا من الخوارج نادى عليا وهو في صلاة الفجر فقال : « وَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ أَيَّحِبُّنَ عَمَلَكَ وَتَشْكُونُ مِنْ الْخَاسِرِينَ » فاجابه وهو في الصلاة : « فَأَصْبِرْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَا يَسْتَخِفُّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » .

ولا عجب من صدور مثل هذا الجواب على البديهة من على كرم الله وجهه ، وهو مدينة العلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وأتباعه الكرام ، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيذهبون أحسنه .

خلاصة ما احتوت عليه السورة الكريمة من الموضوعات

- (١) إثبات النبوة بالإخبار بالغيب .
- (٢) البراهين الدالة على الوحدانية .
- (٣) الاعتبار بما حدث للكاذبين من قبلهم .
- (٤) الأدلة التى فى الآفاق شاهدة على وحدانية الله وعظيم قدرته .
- (٥) الأدلة على صحة البعث .
- (٦) ضرب الأمثال على أن الشركاء لا يُجدونهم فتيلًا ولا قطميرًا .
- (٧) الأمر بعبادة الله وحده ، وهى الفطرة التى فطر الناس عليها .
- (٨) النهى عن اتباع المشركين الذين فرقوا دينهم على حسب أهوائهم .
- (٩) من طبيعة الشرك الإنابة إلى الله إذامسه الضرر ، والإشراك به حين الرخاء .
- (١٠) من دأب الناس الفرح بالنعمة والقنوط حين الشدة . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .
- (١١) الأمر بالتصدق على ذوى القربى والمساكين وإن السبيل .
- (١٢) الدلائل التى وضعها سبحانه فى الأنفس شاهدة على وحدانيته .
- (١٣) للخير والشر فائدة تعود إلى المرء يوم تجزى كل نفس بما كسبت .
- (١٤) فى النظر فى آثار المكذبين عبرة لمن اعتبر .
- (١٥) تسلية الرسول فى عدم إيمان قومه بأنهم صم عمى لا يسمعون ولا يبصرون .
- (١٦) بيان أن الكافرين يكذبون فى الآخرة كما كانوا يكذبون فى الدنيا .
- (١٧) الإرشاد إلى أن الرسول قد بلغ الغاية فى الإعذار والإنذار ، وأن قومه قد بلغوا الغاية فى التكذيب والإنكار .
- (١٨) أمره صلى الله عليه وسلم بإدامة التبليغ مهما لاقى من الأذى ، فإن العاقبة والنصر له ، والخذلان لمن كذب به .

سورة لقمان

هي مكية إلا الآيات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ فمدنية ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة قال له أحبار اليهود : بلغنا أنك تقول : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » أعنيتم أم قومك ؟ قال : كلاً عنيت ، فقالوا : إنك تعلم أننا أوتينا التوراة ، وفيها بيان كل شيء ، فقال عليه الصلاة والسلام ذلك في علم الله قليل ، فأنزل الله هؤلاء الآيات .

وعدة آياتها أربع وثلاثون ، نزلت بعد الصافات .
وسبب نزولها أن قريشا سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قصة لقمان مع ابنه وعن برّه والديه ، فنزلت .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه تعالى قال في السورة السالفة : « وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ » وأشار إلى ذلك في مفتتح هذه السورة .
(٢) إنه قال في آخر ما قبلها : « وَلَنْ جِثَّتْهُمْ بَايَةٌ لِيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ » ، وقال في هذه : « وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا » .
(٣) إنه قال في السورة السابقة : « وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » ، وقال هنا : « مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » ، ففي كليهما إفادة سهولة البعث .

(٤) إنه ذكر هناك قوله : « وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » ، وقال هنا : « وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَاطِلٌ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَأَمَّا نَجَاتُهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ » فذكر في كل من الآيتين قسماً لم يذكره في الآخر .

(٥) به ذكر في السورة التي قبلها محاربة ملكين عظيمين لأجل الدنيا ، وذكر هنا قصة عبد مملوك زهد فيها ، وأوصى ابنه بالصبر والمسالمة ، وذلك يقتضى ترك المحاربة ، وبين الأمرين التقابل وشاسع البون كما لا يخفى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً
لِّلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) .

الإيضاح

(الْم) نقدم تفسير هذا مرارا باسمه .

(تلك آيات الكتاب الحكيم) أى هذه آيات الكتاب الحكيم بياناً وتفصيلاً .
(هدى ورحمة للمحسنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) أى هذه آيات الكتاب الهادى من الزيغ ، الشافى من الضلال لمن أحسنوا العمل ، وتنبهوا الشريعة ، فأقاموا الصلاة على الوجه الأكمل ، الذى رسمه الدين فى أوقاتها ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقها ، وأيقنوا بالجزاء فى الدار الآخرة ، ورجعوا إلى الله فى ثواب ذلك ؛ لم يراعوا به جزاء ولا أرادوا به جزاء ولا شكوراً .
ولما كان المتصفون بهذه الخلال هم الغاية فى الهداية والفلاح قال :

(أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) أى إن هؤلاء الذين ذكرت أيضاً فهم على نور من ربهم ، وأولئك الذين رجوا ما أملوا من ثوابه يوم القيامة ، وقد تقدم مزيد إيضاح لهذا أول سورة البقرة .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُنْزِلَتْ آيَاتُنَا

وَلِي مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ (٧) .

شرح المفردات

المراد بليهو الحديث : الجوارى المغنيات ، وكتب الأعاجم ، وقد اشترت حقيقة .
وقال ابن مسعود : فهو الحديث : الرجل يشتري جارية تغنيه ليلاً ونهاراً ، وعن
ابن عمر « أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في لهُو الحديث : إنما ذلك شراء
الرجل للعب والباطل » ، وسبيل الله : هو دينه ، والمزوء : السخرية ، مهين : أى
تلحقهم به الإهانة : وقرأ : أى صمما يمنعهم من السماع .

المعنى الجملى

بعد أن بين حال السعداء الذين يهتدون بكتاب الله ، وينفعون بسماعه ؛ وهم
الذين قال الله فيهم : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ
جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَتُلَوِّجُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » - أردف ذلك
بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع
الزماير والغناء بالألحان وآلات الطرب .

روى عن ابن عباس أن الآية نزلت في النضر بن الحرث استرى قينة (مغنية)
وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام ؛ لا انطلق به إلى قينة ، فيقول : أطعميه واسقيه
وغنيه ، ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل
بين يديه .

وروى عن مقاتل أنه كان يخرج تاجراً إلى فارس ، فيشتري كتب الأعاجم فيروها
ويحدث بها قريشاً ، ويقول لهم : إن محمداً يحدثكم حديث عاد وثمود . وأنا أحدثكم

حديث رستم واسفنديار ، وأخبار الأكامرة ، فيستملحون حديثه ويتركون سماع القرآن .

الإيضاح

(ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً) أى ومن الناس فريق يتخذ ما يتلوه به عن الحديث النافع للإنسان في دينه ، فيأتى بالخرافات والأساطير والمضاحيك ، وفضول الكلام ، كالنضر بن الحارث الذى كان يشتري الكتب ، ويحدث بها الناس ، ور بما اشترى الفتيات ، وأمرهن بمعاشرة من أسلم ليحملهم على ترك الإسلام ، وما مقصده من ذلك إلا الإضلال ، والصد عن دين الله وقراءة كتابه ، وهو غير عالم بفضله ومكانته ، واتخاذ سبيل الله هزواً ولعباً . وعن نافع قال « كنت أسير مع عبد الله بن عمر في الطريق ، فسمع زمماراً ، فوضع أصبعيه في أذنيه ، وعدل عن الطريق ، فلم يزل يقول : يا نافع أسمع ؟ قلت : لا ، فأخرج أصبعيه من أذنيه ، وقال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع » وعن ابن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما نبيت عن صوتين أحق من فاجرين : صوت عند نعمة لهو ومزامير شيطان . وصوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنه شيطان » .

والخلاصة : إن الغناء عند المشتهرين به الذى يحرك النفوس ، ويبعثها على اللهو والغزل والمجون . بشعر يشب فيه بذكر النساء ، ووصف محاسنهن ، وذكر الخمر والمحرمات ، فلا خلاف في تحريمه ، أما ماسم من ذلك ، فيجوز القليل منه في أوقات الفرح : كالعرس والعيد ، وعند التنشيط على الأعمال الشاقة ، كما كان في حفر الخندق وحدوئ الجثث (عبد أسود يقود بنساء النبي صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع) فأما ما ابتدعه الصوفية من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشببات والطار والمعازف والأوتار فخرام ، وأما طبل الحرب فلا حرج فيه ، لأنه يقيم النفوس ، ويرهب

العدو ، فقد ضرب بين يدى النبی صلى الله عليه وسلم يوم دخل المدينة ، فهمَّ أبو بكر بالزجر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعهم يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح » فكان يضربن ويقلن : نحن بنات النجار ، بهذا محمد من جار . وقصارى ذلك : إن الطلبي في النكاح كالدنف ، والآلات المشهورة به يجوز استعمالها فيه بما يحسن من الكلام ، مما لارفت فيه .

وسماع الغناء من المرأة التي ايست بحرم لايجوز .

ثم بين عاقبة أمرهم ، فقال :

(أولئك لهم عذاب مهين) أى إنه كتب لهم العذاب والخزى يوم القيامة ، لأنهم لما أهانوا الحق باختيارهم الباطل - جوزوا بهاتهم يوم الجزاء بعذاب يفضحهم ويخزيهم أمام الخلائق .

ثم أشار سبحانه إلى أن هذا قد استشرى في نفسه ، فكلما ذكرت بالخير ازدادت إباء ونفورا ، فقال :

(وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعهما كأن فى أذنيه وقرا) أى وإذا تتلى آيات الكتاب الكريم على هذا الذى اشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله - يعرض عن سماعه وولى مستكبرا ، كأن لم يسمعهما كأن فى أذنيه ثقلا ، فلا يصيخ لها ، ولا يابه لتلقفها وتأملها .

ونحو الآية قوله : « قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءَ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى » .

ولما تسبب عن ذلك استحقاقه لما يزيل كبره وعظمته قال :

(فنبشره بعذاب أليم) أى فبشر هذا المعرض وأوعده بالعذاب الذى يؤلمه ويقض مضجعه يوم القيامة .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا
وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال من أعرض عن الآيات وبين مآله - عطف على ذلك ذكر
مآل من قبل تلك الآيات وأنبل على تلاوتها والانتفاع بها .

الإيضاح

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم ، خالدين فيها) أى إن الذين
آمَنُوا بالله وصدقوا المرسلين وعملوا الأعمال الصالحة فأنوا بما أسرم به ربهم فى كتابه
على لسان رسله ، واتبوا عما نهاهم عنه - لهم جنات ينعمون فيها بأنواع اللذات
والمساير من المأكول والمشرب ، والملابس والمراكب ، مما لم يخضر لأحد من قبل ، وهم
فيها مقيمون دائماً لا يظفرون ولا يبعثون فيها حرجاً .

(وعد الله حقاً ، أى ما أخبرنا به كائن للاحقة ، لأنه وعد الله لذى لا يخلف
وعده ، وهو الكريم المتأن على عباده .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو الشديد فى انتقامه من أهل الشرك به ، العاديين
عن سبيله ، الحكيم فى تدبير خلقه ، فلا يفعل إلا ما فيه الحكمة والصلحة لهم .

خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ
بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ
زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا نَلْقَى اللَّهُ فَأَرْوِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ
الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١) .

شرح المفردات

العمد : يا مدعيا عماد ، وهو ما يعمد به أى يسند به ، تقول : عمدتُ الحائط إذا دعمته ، رواسى : أى جبالاً ثوابت ، تميد : أى تضطرب ، والبث : الإثارة والتفريق كما قال : « كَانَفَرَأشِرَ الْمَيْمُوثِ » والبراد الإيديد والإظهار ، وزوج : أى صنف ، كريم : أى شريف كثير المنفعة .

المعنى التام

بعد أن أبان في سلف كمال قدرته وعلمه وإفان عمله - أردف ذلك بالاستشهاد لما سلف ، مع تقرير وحدانيته ، وإبطال أمر الشرك ، وتبكيته أهله .

يضاح

(خاء السموات بغير عمد ترونها : أى ومن الأدلة على قدرته : الباقية ، وحكمته الظاهرة أن خلق السموات السبع بغير عمد تستمد إليه ، بل هي فائضة بقدره الحكيم الفعال لما يشاء ، وقد تقدم تفصيل ذلك في سورة الرعد .

(وأنى ترى الأرض رواسى أن تميد بكم) أى وجعل على ظهر الأرض ثوابت الجبال ، مثلاً تضطرب بكم ، وتميد بالمايه المحطة بها ، الغامرة لأكثرها ، وبث فيها من كل دابة) أى وذراً فيها من أصناف الحيوان ما لا يعلم عددها ومقدار أشكناهم وألوانها إلا الذى فطرها .

(وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) أى وأنزلنا من السماء مطراً فكان ذلك سبباً لأنبات كل صنف . كريم ن النبات ذى المنافع الكثيرة .

وبعد أن نبه إلى أنه الخالق نبه إلى أنه الرازق بقوله :

(هذا خالق الله) أى هذا الذى تشاهدونه من السموات والأرض وما فيهما الخلق خلق الله وحده دون أن يكون له شريك فى ذلك .

ثم أنبأ المشركين ووبخهم على شركهم به ، فقال :

(فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) أى فأخبرونى أيها المشركون الذين تعبدون

هذه الأصنام والأوثان : أى شئ خلق الذين من دونه مما اتخذتموه شركاء له سبحانه في العبادة ، حتى استحقوا به العبودية ، كما استحق ذلك عليكم خالقكم وخالق هذه الأشياء اتى عددها لكم ؟ .

ثم انتقل من توبيخهم بما ذكر إلى تسجيل الضلال عليهم ، المستدعى للإعراض عنهم ، وعدم مخاطبتهم بالمعقول من القول لاستحالة أن يفهموا منه شيئاً فيهدوا إلى بطلان ما هم عليه ، فقال :

(بل الظالمون في ضلال مبين) أى بل المشركون بالله ، العابدون معه غيره ، في جهل وعى واضح لا اشتباه فيه لمن تأمله ونظر فيه ، فأنى لهم أن يرجعوا عن غيٍّ أو يهدوا إلى رشد وحق ؟ .

وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) .

شرح المفردات

لقمان كان نجاراً أسود من سودان مصر ذا مشافر آتاه الله الحكمة ، ومنعه النبوة . والحكمة : العقل والفطنة . وقد نسب إليه من المقالات الحكيمة شئ كثير ، كقوله لابنه : أى بنى إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيها ناس كثيرون ، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى ، وحشوها الإيمان ، وشرعها التوكل على الله ، اعلك تنجو ، ولا أراك ناجياً .

وقوله : من كان له من نفسه واعظ ، كان له من الله حافظ ، ومن أنصف الناس من نفسه ، زاده الله بذلك عزاً ، والذل في طاعة الله ، أقرب من التعزز بالمعصية .
وقوله : يَا بُنَيَّ لَأَنْتَ لَأَنْتَ حَلُومٌ فَتُبْتَغَ وَلاَ مَرّاً فَتُفْطَرَ .

وقوله : يا بنى إذا أردت أن تواخى رجلاً فأغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك عند غضبه فأخه ، وإلا فاحذره . والشكر : الثناء على الله تعالى ، وإصابة الحق ، وحب الخير للناس ، وتوجيه الأعضاء وجميع النعم لما خقت له .

المعنى الجملى

بعد أن بين فساد اعتقاد المشركين بـبشرية من لا يخلق شيئاً بمن خلق كل شيء ، ثم بين أن المشرك ظالم ضال - أعقب ذلك ببيان أن نعمه الظاهرة فى السموات والأرض ، والباطنة : من العلم والحكمة ترشد إلى وحدانيته ، وقد آتاها لبعض عباده كلقمان الذى فطر عليها دون نبيّ رشده ، ولارسول بعث إليه .

الإيضاح

(ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله) أى ولقد أعطى سبحانه لقمان الحكمة ، وهى شكره وحده على ما آتاه من فضله بالثناء عليه بما هو أهل له ، وحب الخير للناس ، وتوجيه الأعضاء إلى ما خلقت له .

(ومن يشكر فإنما يشكر نفسه) لأن الله يجزل له على شكره الثواب ، وينقذه من العذاب ، كما قال : « وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ » .

(ومن كفر فإن الله غنىّ حميد) أى ومن كفر نعم الله عليه ، فإلى نفسه أساء ، لأن الله معاقبه على كفرانه بإياها ، والله غنى عن شكره ، لأن شكره لا يزيد فى سلطانه ، وكفرانه لا ينقص من ملكه ، وهو الحمود على كل حال ، كفر العبد أو شكر .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَتْ عَلَى وَهْنٍ

وَنَصَاتُهُ فِي عَامِينَ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَعِيرِ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنَّا كُنَّا مِثْقَالًا حَبَّةً مِنْ خَرْدَلٍ فَتَرْتَدُّونَ فِي سَعْفَةٍ أَوْ فِي السَّمَرَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآمُرُوا بِالْعُرْوَةِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَعِزُّوا عَلَىٰ مَا أَصَابَكُمْ إِنَّ ذِيكَ مِنْ زُرِّ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَوِّرُوا لِلنَّاسِ وَلَا تَكُنْ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي سَبِيلِهِ وَاعْصِصْ مِنْ صَوْتِكَ لِئَلَّا يَسْمَعَ الصَّوْتُ أَصْوَاتَ اسْرَرٍ أَلْهَمِيرِ (١٩) .

شرح المفردات

الغظة : تذكير بالغير يرق له القلب ، والوهن : الضعف ، والفصال : الفطام ، جاهدك : أى حرصا على متابعتك لهما فى الكفر ، أدب : أى رجع ، الميثاق : ما يوزن به غيره ، وميثاق حبة الخردل مثل فى الصغر ، لطيف : أى يصل علمه إلى كل خفى ، خبير : أى عليم بكنه الأشياء وحقائقها ، من عزم الأمور : أى من الأمور العزومة التى قطعها الله قطع إيجاب ، تنصير الخد : ميله وإبداء صفحة الوجه ، وهو من فعل المتكبرين ، قال أعرابي : وقد أقام الدهر صعري بعد أن أقت صعره ، وظل عمرو بن حفص التغلبي :

وكنا إذا الجبار صعر خده أقمنا له من ميله فتقوموا

وفى الحديث : « يأتى على الناس زمان ليس فيهم إلا أصغر أو أبقر » والأصغر : المعرض بوجهه كبراً ، وفى الحديث : « كل صغار ملمون » أى كل ذى أبهة وكبر هو كذلك . مرحا : أى فرحاً و بطراً ، والختال : هو الذى يفعل الخيلاء وهى التبختر فى المشى كبراً ، والفخور : من الفخر وهو المباهاة بالمال والجاه ونحو ذلك ، اقصد : أى توسط ، اغضض : أى انقص منه وأقصر ، من قولهم : فلان يغض من فلان إذا قصر به ووضع منه . وخط من درجته ، أنكر الأصوات : أى أقبحها وأصعبها على السمع من نكر (بالضم) نكارة ، أى صعب .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن لقمان أوتى الحكمة ، فشكر ربه على نعمه المتظاهرة عليه ، وهو يرى آثارها فى الآفاق والأنفس أثناء الليل وأطراف النهار - أردف ذلك ببيان أنه وعظ ابنه بذلك أيضاً ، ثم استطرد فى أثناء هذه المواعظ إلى ذكر وصايا عامة وصى بها سبحانه الأولاد فى معاملة الوالدين رعاية لحقوقهم ، ورداً لما أسدوه من جميل النعم إليهم ، وهم لا يستطيعون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، على ألا يتعدى ذلك إلى حقوقه تعالى ، ثم رجع إلى ذكر بقية المواعظ التى يتعلق بعضها بحقوق الله ، وبعضها يرجع إلى معاملة الناس بعضهم مع بعض .

الإيضاح

(وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) أى واذكر أيها الرسول الكريم موعظة لقمان لابنه ، وهو أشفق الناس عليه ، وأحبه لهم لديه حين أمره أن يعبد الله وحده ، ونهاه عن الشرك ، وبين له أنه ظلم عظيم ؛ أما كونه ظمناً ، فلما فيه من وضع الشيء فى غير موضعه ، وأما أنه عظيم فلما فيه

من التسوية بين من لانهمة إلامنه ، وهو سبحانه ، ومن لانهمة لها ، وهى الأصنام والأوثان .

روى البخارى عن ابن مسعود قال : لما نزل قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : أين لم يلبس إيمانه بظلم ؟ نقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه ليس بذلك . ألا تسمعون لقول لقمان : « يَا بَنَى لَا تُشْرِكْ بِنَاثَا إِنْ الشَّرْكَ أَظْلَمُ عَظِيمٌ » .

وبعد أن ذكر سبحانه ما أوصى به لقمان ابنه من ذكر المنعم الأول الذى لم يشركه فى إيجاد أحد ، وذكر ما فى الشرك من الشناعة أتبعه بوصيته لولده بالوالدين لكونهما السبب فى وجوده ، فقال :

(ووصينا الإنسان بوالديه) أى وأمرناه ببرهما وطاعتهم ، وإتيانهم بحقوقهما ، وكثيرا ما يقرن القرآن بين طاعة الله وبر الوالدين كقوله : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » .

ثم ذكر منة الوالدة خاصة لما فيها من كبير المشقة ، فقال :
(حملته أمه وهنا على وهن) أى حملته وهى فى ضعف يتزايد بازدياد ثقل الحمل إلى حين الطلق ، ثم مدة النفاس .

ثم أورد فيها بذكر منة أخرى ، وهى الشفقة عليه وحسن كفته حين لا يملك لنفسه شيئا ، فقال :

(وفصاله فى عامين) أى وفطامه من لرضاعة بعد وضعه فى عامين تقام فى فيها الأم فى رضاعه وشئونه فى تلك الحقبه جم انصاعب والآلام التى لا يقدر فندرها إلا العليم بها ، ومن لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . وقد وصى بالوالدين لكونه ذكر السبب فى جانب الأم فحسب ، لأن المشقة التى تتحقتها أعظم ، فقد حمته فى بطنها ثقيلًا ، ثم وضعته وربته ليلا ونهارا ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم إن

سأله من أبرّ ذ: أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم قل بعد ذلك : ثم أباك .
ثم فسر هذه الوصية بقوله :

(أن اشكر لى ولوالدك) أى وعهدنا إليه أن اشكر لى على نعمى عليك ،
ونوالديك لأنهما كانا السبب فى وجودك ، وإحسان تربيتك ، وملاقاتهما ملاقيهما من
المشقة حتى استحكمت قواك .

ثم علل الأمر بالشكر له مخذراً إياه بقوله :

(إلى المخير) أى إلى الرجوع ، لا إلى غيرى ، فأجازيك على ما صدر منك مما
يختلف أمرى ، ومما كنت عما كان من شكرك لى على نعمى عليك ، وعلى ما كان من
شكرك لوالديك وبرك بهما .

و بعد أن ذكر سبحانه وصيته بالوالدين وأكد حقهما ، ووجوب طاعتهما استثنى
من ذلك حقوق الله ، فإنه لا يجب طاعتهما فيما يفضيه ، فقال :

(وإن جاهدك على أن تشرك بى ما نيس لك به علم فلا تطعهما) أى وإن
ألحف عليك والباك فى العلق ، وشدا الفكير عليك : بأن تشرك بى فى عبادتك معى
غيرى مما لاتعلم أنه شريك لى ، فلا تطعهما فيما أمرك به ، وإن أدى الأمر إلى السيف
فجاهدهما به .

روى أن هذه الآية نزلت فى سعد بن وقاص قال : « لما أسلمتُ حلفت أى
لاتأكل طعاماً ولا تشرب شراباً ، فناشدتها أول يوم فأبوت وصبرت . فلما كان اليوم
الثانى ناشدتها فأبوت ، فلما كان اليوم الثالث ناشدتها فأبوت ، فقلت : والله لو كانت
لك مائة نفس لخرجت قبل أن أودع دينى هذا ، فلما رأت ذلك وعرفت أنى لست
فأعلاً أكلت » .

(وصاحبهما فى الدنيا معروفاً) أى وصاحبهما فى أمور الدنيا صحبة يرتضيها الدين
ويقتضيها الكرم والروعة ، بإطعامهما وكسوتهما ، وعدم جفائهما وعيادتهما إذا مرضا ،
موارثتهما فى القبر إذا ماتا .

وقوته : (فى الدنيا) إشارة إلى تهوين أمر الصعبة ، لأنها فى أيام قلائل وشيكة الانقضاء ، فلا يصعب تحمل مشقتها ؛ وما كان ذلك قد يجر إلى نوع وهن فى الدين ببعض محابة فيه نفى ذلك بقوله :

(واتبع سبيل من أناب إلى) أى واسلك سبيل من تاب من شركه ورجع إلى الإسلام . واتبع محمداً صلى الله عليه وسلم .

والخلاصة : واتبع سبيل التوحيد والإخلاص والطاعة ، لاسببيهما .

(ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) أى ثم مصيركم إلى بعد مماتكم ، فأنبئكم بما كنتم تعملون فى الدنيا من خير وشر . ثم أجازيكم عليه ، المحسن منكم بإحسانه ، والنسى بإساءته .

ثم عاد إلى ذكر بقية وصايا لقمان لابنه بعد أن نهى فى مطاعه عن الشرك وأكده بالاعتراض الذى ذكره بقوله :

(يا بنى إنما إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله) أى يا بنى إن الفعلة من الإساءة والإحسان إن تك وزن حبة من خردل فتكن فى أخفى مكان وأحرزد كجوف الصخرة أو فى أعلى مكان كالسموات أو فى أسفلها كباطن الأرض ... يحضرها الله يوم القيامة ، حين يضع الموازين القسط ، ويحازى عليها إن خير ، فخير ، وإن شراً فشر ، كما قال تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً » .

(إن الله لطيف خبير ، أى إن الله لطيف يصل علمه إلى كل خفى ، خبير : يعلم ظواهر الأمور وخوافيها .

(يا بنى أقم الصلاة) أى أدها كاملة على النحو المرضي ، لما فيها من رضا الرب بالإقبال عليه والإحبات إليه . ولما فيها من النهى عن الفحشاء والمنكر ، وإذا تم ذلك صفت النفس وأزبت إلى بارئها فى السمراء والضراء كما جاء فى الحديث : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » .

وبعد أن أمره بتكميل نفسه توفية لحق الله عليه عطف على ذلك تكميله
غيره ، فقال :

(وأمر بالمعروف) أى وأمر غيرك بتهديب نفسه قدر استطاعتك ، تركية لها ،
وسعيًا إلى الفلاح ، كما قال : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

(وانه عن المنكر) أى وانه الناس عن معاصي الله ومحارمه التى توبق من
اكتسبها ، وتلقى به فى عذاب السعير ، فى جهنم وبئس المصير .

(واصبر على ما أصابك) من أذى الناس فى ذات الله إذا أنت أمرتهم بالمعروف
أو نهيتهم عن المنكر .

وقد بدأ هذه الوصية بالصلاة ، وختمها بالصبر ، لأنهما عماد الاستعانة إلى رضوان
الله كما قال : « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ » .

ثم ذكر علة ذلك . فقال :

(إن ذلك من عزم الأمور) أى إن ذلك انبى أوصيت به من الأمور التى
جمعها الله حتما على عباده لاحتياج منها ، لما فاء من جزيل العوائد . وعظيم المنافع
فى الدنيا والآخرة ، كما دلت على ذلك تجارب الحياة ، وأرشدت إليه نصوص الدين ،
وبعد أن أمره بأشياء حذره من أخرى ، فقال :

(١) (ولا تصغر خدك للناس) أى ولا تعرض بوجهك عن تكلمه تكبرا
واحتقارا له ، بل أقبل عليه بوجهك كله متبذلا مستبشرا من غير كبير ولا عنو ، ومن
هذا المعنى ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : « لا تباغضوا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحسن
مسمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث » .

(٢) (ولا تمش فى الأرض مرحا) أى ولا تمش فى الأرض مختلا متبغضرا ، لأن
تلك مشية الجبارين المتكبرين الذين يبعون فى الأرض ، ويظلمون الناس . بل امش

هونا ، فإن ذلك يفضى إلى التواضع ، وبذا تصل إلى كل خير .

روى يحيى بن جابر الطائى عن غضيف بن الحرث قال : « جلست إلى عبد الله ابن عمرو بن العاصى ، فسمعتة يقول : إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه ، فيقول : يا بن آدم ما غرك بى ؟ ألم تعلم أنى بيت الوحدة ؟ ألم تعلم أنى بيت الظلمة ؟ ألم تعلم أنى بيت الحق ؟ يا بن آدم ما غرك بى ؟ لقد كنت تمشى حولى فذاذا (ذا خيلاء وكبر) » . وفى الحديث : « من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة » .

ثم ذكر عنة هذا النهى بقوله :

(إن الله لا يحب كل مختال فخور) أى إن الله لا يحب المختال المعجب بنفسه ، الفخور على غيره ، ونحو الآية ما مر من قوله : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنَ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنَ تَبْغَا الْجِبَانَ طُولًا » .

(٣) (واقصد فى مشيك) أى امش مشيا مقتصدا ليس بالبطىء المتعبط ، ولا بالسريع المفرط ، بل امش هونا بلا تصنع ولا مراعاة للخلق بإظهار التواضع أو التكبر .

روى عن عائشة أنها انظرت إلى رجل كاد يموت تخافتا ، فقالت : ما هذا ؟ فقيل : إنه من القراء (الفقهاء العالمين بكتاب الله) قالت : كان عمر سيد القراء ، وكان إذا مشى أسرع . وإذا قال أسمع ، وإذا ضرب أوجع .

ورأى عمر رجلا متماوتا ، فقال له : لَأَتِمَّتْ عَلَيْنَا دِينَنَا أَمَاتَكَ اللَّهُ . ورأى رجلا مطأطئا رأسه ، فقال له : « ارفع رأسك ، فإن الإسلام ليس بمريض » .

(واغضض من صوتك) أى انقص منه وأقصر ، ولا ترفع صوتك حيث لا يكون إلى ذلك حاجة ، لأنه أوقر المتكلم وأبسط لنفس السامع وفهمه .

ثم علل النهى وبيّنه بقوله :

(إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) أى إن أبشع الأصوات وأقبحها رفعها فوق

الحاجة بإلداع هو صوت الحير ، وغاية من يرفع صوته أنه يجعله شبيها بصوت الحمار في علوه ورفعه ، وهو البغيض إلى الله .

وفي ذلك ما لا يخفى من الذم . وتهجين رفع الصوت ، والترغيب عنه ، ومن جعل الزافع صوته كأنه حمار مبالغة في التنفير من عمله ، وهذا أدب من الله لعباده بترك الصياح في وجوه الناس تهاوناً بهم ، أو بترك الصياح جملة .

وقد كانت العرب تفخر بجهرة الصوت ، فمن كان منهم أشد صوتاً كان أعز ، ومن كان أخفض كان أذل ، قال شاعرهم :

جهير الكلام جهير العطاس جهير الرواء جهير النعم
ويعدو على الأين عدو الظليم وعلو الرجال بخلق عَمَم^(١)

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) ؟

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على التوحيد . وذكر أن لقمان فهمه بالحكمة دون أن يرسل إليه نبيّ - عاد إلى خطاب المشركين وتوبيخهم على إصرارهم على ما هم عليه من الشرك مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد لأئحة للبيان ، يشاهدونها في كل آن . في السموات والأرض ، وتسخيرهم لما فيها مما فيه مصالحهم في المعاش والمعاد ، وإنعامه عليهم بالنعم المحسوسة والمعتولة ، المعروفة لهم وغير المعروفة ؛ ثم أبان أن كثيراً من الناس يجادلون

(١) الرواء بالضم : لمنظار الحسن . والنعم : الأبل ، والأين : الأعياء ، والنعيم : التام .

فى توحيد الله وصفاته بدون دليل عقلى على ما يدعون ، ولا رسول أرسل إليهم بما عنه
ياضلون ، ولا كتاب أنزل إليهم يؤيد ما يعتقدون ، وإذا هم أغموا بالحجة والباطل
المبين ، لم يجدوا جوابا إلا تقليد الآباء والأجداد بنحو قولهم : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا
عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ » وما ذاك إلا من نزغات الشيطان ، والشيطان
لا يدعو إلا إلى الضلال الموصل إلى النار ، وبئس القرار .

الإيضاح

(ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه
ظاهرة وباطنة) أى ألم تروا أيها الناس أن الله الذى سخر لكم ما فى السموات من
شمس وقر ، ونجوم وسحاب ، تستضيئون بها ليلا ونهاراً . وتهتدون بها فى ظلمات البر
والبحر ، وتنزل لكم الأمطار لسقى الناس والحيوان والمزارع المختلفة ، وما فى الأرض
من الدواب والأشجار ، والمياه والبحار ، والسفن والمعادن التى فى باطنها ، إلى نحو
ذلك من المنافع التى جعلها لغذائكم وأقواتكم ؛ فتمتعون ببعض ذلك ، وتلتفتون
بجميع ذلك ، وأنتم عليكم نعمه محسوسة وغير محسوسة .

والخلاصة : إنه تعالى نبه خلقه إلى ما أنعم به عليهم فى الدنيا والآخرة ؛ بأن سخر
لهم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليهم من النعم الظاهرة والباطنة ، فأرسل
الرسول وأنزل الكتاب وأزاح الشبه والعنل .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية :
« الظاهرة : الإسلام وما حسن من خلقك ، والباطنة : ما ستر عليك من سبب
عملك » وقيل : الظاهرة الصحة وكال الخلق ، والباطنة : المعرفة والعقل ؛ وقيل :
الظاهرة : ما يرى بالآبصار من المال والجهد والجمال ، وتوفيق الطاعات ، والباطنة :

ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله ، وحسن اليقين ، وما يدفع عن العبد من الآفات .

ثم ذكر أنه مع كل هذه الأدلة الظاهرة قد ماري بعض الناس دون برهان من عقل ولا مستند من نقل ، فقال :

(ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) أى وهناك فريق من الناس يجادل ويخاصم في توحيد الله وصفاته كالنضر بن الحرث وأبي بن خلف اللذين كانا يجادلان النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك بلا علم من عقل ولا مستند من حجة صحيحة ولا كتاب مأثور يؤيد صحة ما يدعون .

ثم بين أنه لا مطمع في إيمان مثل هؤلاء ، لأنهم قد باغوا الغاية في الغباوة ، واستسلموا للتقليد ، وتركوا الدليل وإن كان لأحما ظاهراً ، فقال :

(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قلوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) أى وإذا قيل هؤلاء المجادلين الجاحدين لوحدة الله : اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الشرائع — لم يجدوا رداً لذلك إلا قولهم : إنا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من دين ، فإنهم كانوا أهل حق ودين صحيح .

هو يختمهم على تلك المقالة التي هي من حبائل الشيطان ووساوسه فقال :

(أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير؟) أى أيتبعونهم على كل حال دون نظر إلى دليل؟ فربما كان اعتقادهم مبنيًا على الهوى وترهات الأباطيل ، سداه ولحمته ما زينه لهم الشيطان من وساوس لا تستند إلى حجة ولا برهان .

والخلاصة — أما كان لهم أن يفكروا ويتدبروا حتى يعلموا الحق من الباطل والصواب من الخطأ ، فإن الرجال بالحق وليس الحق بالرجال ؟

وفي هذا ما لا يخفى من تسفيه عقولهم وتسخيف آرائهم ، وأنهم ببغوا المدرك الأسفل في هدم العقل وعدم الركون إلى الدليل مهما استبان غايته واستقامت محجته .

وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى
وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ
فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٢) نَعْتَمُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ
نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) .

شرح المفردات

يسلم وجهه : أى يفوض أمره ، محسن : أى مطيع لله فى أمره ونهيه ، والمراد
بالعروة الوثقى : أوثق العرى وأمتنها ، وهو مش : وأصله أن من يرقى فى جبل شاهق
أو يتدلى منه يستمسك بحبل متين مأمون الانقطاع ، نضطرهم : أى نزمهم ، وغليظ :
أى ثقیل ثقل الأجرام الغلاظ .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال المشرك المجادل فى الله بغير علم - أردف ذلك بذكر
حال المستسلم المفوض أموره إلى الله ، وبيان عاقبته ومآله ، ثم سلى رسوله عما يلقاه
من المشركين من العناد والكفران ببيان أنه قد بلغ رسالات ربه وتلك وظيفة
الرسول ، وعلى الله الحساب والجزاء ، فهو يحازيهم بما يستحقون من العذاب الغليظ
فى جهنم وبئس المصير .

الإيضاح

(ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى ومن
يعبد الله وهو متذلل خاضع مع الإحسان فى العمل بفعل الطاعات ، وترك المعاصى
والمنكرات ، فقد تعلق بأوثق الأسباب التى توصل إلى رضوان ربه ومحبتة وحسن
جزائه على ما قدم من عمل صالح .

ثم بين العلة في أنه يلقي الجزاء الأوفى فقال :

(وإلى الله عاقبة الأمور) أى إن المصير إلى الله لا إلى غيره ، فلا يكون لأحد إذ ذاك أمر ولا نهى ، ولا عقاب ولا ثواب ، فيجازى المتوكل عليه أحسن الجزاء ، ويعاقب المسىء أنكل العذاب .

ثم سلى رسوله عما يلقاه من أذى المشركين وعنادهم فقال :

(ومن كفر فلا يحزنك كفره) أى لا تحزن على كفرهم بالله وبما جئت به ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فإن قدر الله نافذ فيهم .

ثم بين لرسوله أنه لا يهملهم على أعمالهم بل هو يجازيهم عليها فقال :

(إني أرجعهم فننبئهم بما عملوا) أى إن مصيرهم يوم القيامة إني أفضيهم بما عملوا في الدنيا من خبيث الأعمال حتى لا يكون هناك سبيل إلى الإنكار ثم يجازيهم على ذلك أشد الجزاء .

ثم بين أنه عادل في الجزاء لسعة علمه وعظيم إحاطته بكل شىء فقال :

(إن الله عليم بذات الصدور) أى إنه تعالى يجازيهم بكل ما عملوا ، إذ لا تخفى عليه خافية

ثم بين أن ما يتمتعون به في الدنيا فهو عرض قليل وظن زائل لا ينبغي لعاقل أن يقيم له وزنا بجانب العذاب الدائم فقال :

(نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) أى نملهم في الدنيا زمنا قليلا يتمتعون فيه بزخارفها ثم ناجئهم على كره منهم إلى عذاب شاق على نفوسهم .

ونحو الآية قوله : « قُلْ إِنَّ الدِّينَ يَفْتَرُونُ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » .

وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) .

المعنى الجملى

بعد أن أفام الأدلة على وحدانيته تعالى بخلق السموات بلا عمد وبإسباغ نعمه الظاهرة والباطنة عليهم - أردف ذلك ببيان أن المشركين معترفون بذلك غير جاحدين له ، وهذا يستدعى أن يكون الحمد كله له وحده ، ومن يستحق الحمد هو الذى يستحق العبادة ؛ فآمرهم عجب يعمون المقدمات ثم ينكرون النتيجة التى تستتبعها ، فيعبدون من لا يستحق عبادة ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا من الأصنام والأوثان .

الإيضاح

(ولَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) أى ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله من قومك : من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن الله . وفى هذا إيماء إلى أنه قد بلغ من الوضوح مبالغا لا يستطيعون معه الإنكار والجحود .

ولما استبان بذلك صدقه صلى الله عليه وسلم وكذبهم قال آمرا رسوله .
(قل الحمد لله) على إلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان ما هم عليه من إشراك غيره تعالى به فى العبادة التى لا يستحقها سوى الخالق المنعم على عباده .
ثم بين أنهم بلغوا الغاية فى الجهل فهم يعترفون بالشىء ويعملون نقيضه فقال :
(بلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) أى بل أكثر المشركين لا يعلمون من له الحمد وأين موضع الشكر ، فهم مع تكذيبك يعترفون بما يوجب تصديقك .
ولما أثبت لنفسه الإحاطة بأوصاف الكمال استدلل على ذلك بقوله :

(لله ما فى السموات والأرض ، إن الله هو الغنى الحميد) أى له سبحانه كل ما فى السموات والأرض ملكا وخلقًا وتصرفًا وليس ذلك لأحد سواه ، فلا يستحق العبادة فيهما غيره ، وهو الغنى عن عبادة جميع خلقه لأنهم ملوكه وهم المحتاجون إليه ، الحمدود على نعمه التى أنعمها عليهم .

وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أجرى الحكمة على لسان نعت . ثم قفى نبي ذلك ببيان أنه أسبغ نعمه على عباده ظاهرة وباطنة ، وأن له ما فى السموات وما فى الأرض - أردف ذلك ببيان أن تلك النعم وهذه الخلقات لا حصر لها ولا يعلمها إلا خالقها كما قال : « وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا » .

ولما كانت تلك النعم التى لا حصر لها ور بما ظن أنها مبعثرة لا قانون لها أو أنها لكثرتها يصعب عليه تدبيرها وتصريف شئونها كما يريد - دفع هذا بقوله : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) .

روى أنه لما نزل بمكة قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ » الآية ، وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه أحرار اليهود وقالوا بلغنا أنك تقول : « وَمَا أَوْثَقْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » أتعيند أم معنى قومك ؟ قال : كلاً عنيت ، قالوا أأنت تعلم فى جأرك أنا أوتينا التوراة فيها علم كل شيء ، فقال صلى الله عليه وسلم هى فى علم الله قليل ، وقد أتاكم ما إن علمتم به انتفعتم ، قالوا كيف تزعم هذا وأنت

نقول : « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » فكيف يجتمع علم قليل وخير كثير ، فنزلت الآية : (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) الخ .

الإيضاح

(ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر ينده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) أى لو أن أفنان الأشجار وأغصانها برت أقلاما وجعل البحر مدادا وأمدته سبعة أبحر والمخلوقات جميعا يكتبون بها كلمات الله الدالة على عظمته وجلاله لتكسرت الأقلام ونفد ماء البحر ولم تنفد كلمات الله .

ونحو الآية قوله : « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِثَلَاثِ مَدَدًا » وإنما ذكرت السبعة الأبحر للدلالة على الكثرة ، لا تقصد هذا العدد بعينه ، فقد تقدم أن قلنا أنفاً إن العرب تذكر السبعة ، والسبعين ، والسبعائة ، وتريد بذلك الكثرة كما جاء فى الحديث « سبعة يظاهم الله فى خلقه لا نزل إلا ظله » وفى الآية : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ » .

وقصارى ذلك : إنه أخبر أن عظمته وكبريائه وجلاله وأسماءه الحسنى لا يحيط بها أحد ، ولا يصل البشر إلى معرفة كتبها وعددها كما ورد فى الحديث : « سبحانه لا تحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

(إن الله عزيز حكيم) أى إن الله قد عز كل شئ وقهره . فلا مانع لما أراد ولا معتب لحكمه ، وهو الحكيم فى خلقه وأمره . وأقواله وأفعاله ، وشرعه وجميع شئونه .

ثم أبان أن هذا الخلق الذى لا حصر له محيط به علما ، ولا يعجزه شئ فيه متى أراد ، فقال :

(ما خلقكم ولا بعثكم إلا كففس واحدة) أى ما خلق جميع الناس ولا بعثهم

يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا خلق نفس واحدة ، فالسكر هين عليه كما قال : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » . ونال : « وَمَا أَمْرُنَ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » ، وقال : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » .
(إن الله سميع بصير) أى إن الله سميع لأقوال عباده ، بصير بأفعالهم .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَمَسْحَرَ
الشَّمْسِ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ يَتَوَلَّى الْخَلْقَ وَيَتَوَلَّى
ذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لِقَوْمٍ يُفْهِمُونَ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ
الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ
آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) إِذَا غَشِيَهم مَوجٌ
كَالظُّلُمِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ
وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)

شرح المفردات

يولج : أى يدخل ، والمراد أنه يضيف الليل إلى النهار ، والعكس بالعكس ،
بينه ووت بذلك حالة أحدهما زيادة ونقصانا ، تجرى : أى تسير سيرا سريعا ، بنعمة
الله : أى بما تحمله من أطعام والمتاع ونحوهما ، غشيه : أى غطاه ، والظلم : واحدها
ظلمة ، وهى كما قال الراغب : السجاية تظل ، مقتصد : أى سلك للقصد أى للطريق
المستقيم ، وهو التوحيد لا يعبد عنه إلى غيره ، وما يجحد : أى ما ينكر ، وختار :
من الختر ، وهو أشد الغدر ، قال عمرو بن معد يكرب :

فإنك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدر وختر

وقال الأعشى :

بالأبلى الفرد من تيماء منزلهُ حصن حصين وجار غير ختار

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه سخر للإنسان ما فى السموات وما فى الأرض - ذكر هنا بعض ما فىهما بقوله : يولج الليل فى النهار الخ ، وبعض ما فى السموات بقوله : وسخر الشمس والقمر ، وبعض ما فى الأرض بقوله : ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ، ثم ذكر أن السكك معترفون بتلك الآيات ، إلا أن البصير يدركها على الفور ، ومن فى بصيرته ضعف لا يدركها إلا إذا وقع فى شدة ، وأحذق به الخطر ، فهو إذ ذك يعترف أن كل شيء بإرادة الله .

الإيضاح

(ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى ألم تشهد أيها الناظر بعينيك أن الله يزيد ما نقص من ساعات الليل فى ساعات النهار ، ويزيد ما نقص من ساعات النهار فى ساعات الليل .

والخلاصة : إنه يأخذ من الليل فى النهار ، فيقصر ذاك ويطول هذا ، وذلك فى مدة الصيف ، إذ يطول النهار إلى الغاية ، ثم يبتدىء النهار فى النقصان ، ويطول الليل إلى الغاية فى مدة الشتاء .

(وسخر الشمس والقمر) لمصالح خلقه ومنافعهم .

(كل يجرى إلى أجل مسمى) أى كل منهما يجرى بأمره ، إلى وقت معلوم ، وأجل محدد ، إذا بلغه كوَّرت الشمس والقمر .

(وأن الله بما تعملون خبير) أى وأن الله بأعمالكم من خير وشر خبير بها لا تخفى عليه خافية من أمرها ، وهو مجازيكم بها .

ثم بين الحكمة فى إظهار آياته للناس ، فقال :

(ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل) أى إنما يظهر آياته لكم لتستدلوا بها على أنه هو المستحق للعبادة ، وأن كل ما سواه هو الباطل الذى يضمحل ويفنى ، فهو الغنى عما سواه ، وكل شىء فقير إليه .

(وأن الله هو العلى الكبير) أى وأنه تعالى المرتفع على كل شىء ، والمتسلط على كل شىء ، فكل شىء خاضع له ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

وبعد أن ذكر الآيات السماوية الدالة على وحدانيته أشار إلى آية أرضية ، فقال :
(ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته) أى ألم تشاهد أيها الرسول السفن وهى تسير فى البحر حاملة للأقوات والمتاع ، من بلد إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر هو فى حاجة إليها لينتفع الناس بما على ظاهر الأرض مما ليس فى أيديهم .
وفى هذا دليل على عجيبة قدرته التى ترشدكم إلى أنه الحق الذى أوجد ما ترون من الأحوال الثقيلة على وجه الماء الذى ترسب فيه الإبرة فما دونها .

ثم ذكر من يستفيد من النظر فى الآيات ، فقال :

(إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى إن فيما ذكر لدلائل واضحات لكل صبار فى الضراء ، شكور فى البراء . قال الشعبى : الصبر نصف الإيمان ، والشكر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله ، ألم تر إلى قوله : « **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** » . وقوله : « **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ** » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر** » .

ثم بين أن المشركين ينسون الله فى السراء ويأبثون إليه حين الضراء ، فقال :
(وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين) أى وإذا أحاطت بالمشركين الذين يدعون من دون الله الآلهة والأوثان - الأمواج العالية التى كالجبال ، وأحرق بهم الخطر من كل جانب حين يركبون السفن - فزعوا بالدعاء إلى الله مخلصين له الطاعة لا يشركون به شيئاً ، ولا يدعون معه أحداً سواه ، ولا يستغيثون بغيره .

(فلما نجاهم إلى البر ففهم مقتصد وما يحجد بآياتنا إلا كل ختار كفور) أى فلما نجاهم من الأهوال التى كانوا فيها ، وخلصوا إلى البر ، ففهم متوسط فى أقوله وأفعاله بين الخوف والرجاء ، موفّ بما عاهد عليه الله فى انبجىر . ومنهم من غدر ونقض عهد الفطرة ، وكفر بأنعم الله عليه .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)

شرح المفردات

اتقوا ربكم : أى خافوا عقابه ، لا يجزى : أى لا يغنى ، والغرور : ماغرّ الإنسان من مال وجاه ، وشهوة وشيطان ، والساعة : يوم القيامة ، ما فى الأرحام : أى ما فى أرحام النساء من صفاته وأحواله كالدكورة والأنوثة ، والحياة والموت ، وغيرها من الأعراض .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر دلائل التوحيد على ضروب مختلفة ، وأشكال متنوعة - أمر بتقوى الله على سبيل الموعظة والتذكير بيوم عظيم ، يوم يحكم الله بين عباده ، يوم لا تنفع فيه قرابة ، ولا تجدى فيه صلة رحم ، فلو أراد والد أن يفدى ابنه بنفسه لما قبل منه ذلك ، وهكذا الابن مع أبيه ، فلا تلهينكم الدنيا عن الدار الآخرة ، ولا يفرنكم الشيطان

فيزين لكم بوساوسه المعاصي والآثام . ثم ختم السورة بذكر ما استأثر الله بعلمه ، مما في الكائنات ، وهي الخمس التي اشتملت عليها الآية الكريمة ، مما لم يؤت علمها ملك مقرب ، ولا نبي مرسل .

الإيضاح

(يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا) أى يأيها المشركون من قريش وغيرهم اتقوا الله وخافوا أن يحل بكم سخطه في يوم لا يغني والد عن ولده ، ولا مولود هو مغني عن والده شيئا ، لأن الأمور كلها بيد من لا يغالب ، ومن لا تنفع عنده الشفاعة والوسائل التي تنفع في الدنيا ، بل لا تجدى عنده إلا وسيلة واحدة ، هي العمل الصالح الذي قدمه المرء في حياته الأولى . ثم أكد ما سلف بقوله :

(إن وعد الله حق) أى واعظوا أن محيى هذا اليوم حق ، لأنه قد وعد الله به ولا خلف لوعده .

ثم حذرهم من شيئين ، فقال :

- (١) (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) أى فلا تتخذنكم زينة هذه الحياة ولذاتها ، فتميلوا إليها وتدعوا الاستعداد لما فيه خلاصكم من عقاب الله في ذلك اليوم .
- (٢) (ولا يفرنكم بالله الغرور) أى ولا يفرنكم الشيطان ، فيحملنكم على المعاصي بتزيينها لكم ، ثم إرجاء التوبة إلى ما بعد ذلك ، ثم هو ينسينكم ذلك اليوم ، فلا تتخذن له زادا ، ولا تعدنه معدادا .

ثم ذكر سبحانه خمسة أشياء لا يعلمها إلا هو ، فقال :

- (١) (إن الله عنده علم الساعة) فلا يعلمها أحد سواه ؛ لملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، كما قال : « لَا يُجَلِّيهَا لَوَفَّتْهَا إِلَّا هُوَ » .
- (٢) (وينزل الغيث) في وقته المقدر له ، ومكانه المعين في علمه تعالى ، والفلكيون وإن علموا الخسوف والكسوف ، ونزول الأمطار بالأدلة الحسابية ،

فليس ذلك غيب ، بل بأمارات وأدلة تدخل فى مقدور الإنسان ، ولا سيما أن بعضها قد يكون أحيانا فى مرتبة الضن ، لافى مرتبة اليقين .

(٣) (ويعلم ما فى الأرحام) اذكر هو أم أنثى ، أتام الخلق أم ناقصه ، أو نحو ذلك من الأحوال العارضة له .

(٤) (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا) من خير أو شر .

(٥) (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) أى لا يدرى أحد أين مضجعه من الأرض ؟ أفى بحر أم فى بر ، أم فى سهل ، أم فى جبل .

(إن الله عليم خبير) أى إن الله عليم بجميع الأشياء ، خبير ببواطنها كما هو خبير بظواهرها .

أخرج ابن المنذر عن عكرمة «أن رجلا يقال له : الوارث بن عمرو بن حارثة جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد متى قيام الساعة ؟ وقد أجذبت بلادنا ، فمتى تُخْصَب ؟ وقد تركت امرأتى حبلى فما تلد ؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أ كسب غدا ؟ وقد علمت بأى أرض ولدت ، فبأى أرض أموت ؟ فنزلت الآية : إن الله عنده علم الساعة الخ » .

وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مفاتيح الغيب خمس : إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير » . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

محمل ما حوته السورة الكريمة من الموضوعات

- (١) القرآن هداية ورحمة للمؤمنين .
- (٢) قصص من ضل عن سبيل الله بغير علم ، واتخذ آيات الله هزوا .
- (٣) وصف العالم العلوى ، والعالم السفلى ، وما فيهما من العجائب الدالة على وحدانية الله .
- (٤) قصص نمرات وإيتاؤه الحكمة ، وشكره لربه على ذلك ، ثم نصائح لابنه .
- (٥) الأمر بطاعة الوالدين إلا فيما لا يرضى الخالق .
- (٦) النعم على المشركين في ركونهم إلى التقليد إذا دعوا إلى النظر في الكون وعبادة الخالق له .
- (٧) لا نجاة للإنسان إلا بالإخبات إلى الله وعمل الصالحات .
- (٨) تسلية الرسول عن عدم إيمان المشركين .
- (٩) تعجيب رسوله من المشركين بأنهم يقولون بأن الله هو الخالق لكل شيء ثم هم يعبدون معه غيره ممن هو مخلوق مثاهم .
- (١٠) نعم الله ومخلوقاته لا حصر لها .
- (١١) الأمر بالنظر إلى الكون وعجائبه لاسترشاد بذلك إلى وحدانية الصانع لها .
- (١٢) تحميق المشركين بأنهم في الشكائد يدعون الله وحده ، وفي الرخاء يشركون معه سواه .
- (١٣) الأمر بالخوف من عذاب الله يوم لا يحزى والد عن ولده .
- (١٤) مفاتيح الغيب الخمسة التي اسنأثر الله بعلامها .
- (١٥) إحاطة علمه تعالى بجميع الكائنات ظاهرها وباطنها .

سورة السجدة

هى مكية إلا من آية ١٦ إلى آية عشرين فمدنية .

وعدة آياتها ثلاثون ، نزلت بعد سورة (المؤمنين) .

ووجه اتصالها بما قبلها من وجود :

(١) اشتغال كل منهما على دلائل الألوهية .

(٢) إنه ذكر فى السورة السالفة دلائل التوحيد ، وهو الأصل الأول ، ثم ذكر

المعاد ، وهو الأصل الثانى ، وهنا ذكر الأصل الثالث ، وهو النبوة .

(٣) إن هذه السورة شرحت مفاتيح الغيب التى ذكرت فى خاتمة ما قبلها ،

فقوله : « ثُمَّ يَرْجُؤُ الْيَوْمِ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ » شرح لقوله : « إِنَّ

اللَّهُ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » وقوله : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ »

شرح لقوله : « وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ » وقوله : « الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ » .

تفصيل لقوله : « وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ » وقوله : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ »

إيضاح لقوله : « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا » وقوله : « أَأَنْذَا ضَالِّمًا

فِي الْأَرْضِ الْحَ » شرح لقوله « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَىْ أَرْضٍ تَمُوتُ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَأَرِيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ

افْتَرَاهُ ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ

لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)

الإيضاح

(آلم) تقدم الكلام فى مثل هذا من قبل فى معناه ، وكيفية النطق به .
 (تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين) أى إن هذا القرآن الذى أنزل
 على محمد لاشك أنه من عند الله ، وليس بشعر ، ولا سجع كاهن ، ولا هو مما تخرصه
 محمد صلى الله عليه وسلم .
 وفى هذا تكذيب لقولهم : « وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى
 عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » .

ثم فند تكذيبهم له ، وأكد أنه من لدن رب العالمين ، فقال :
 (أم يقولون افتراه ، بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك
 لعلهم يهتدون) أى بل هو الحق والصدق من عند ربك أنزله إليك لتنذر قومك
 بأس الله وسطوته أن تحل بهم على كفرهم به ، وإنه لم يأتهم نذير من قبلك ليبين لهم
 سبيل الرشاد ، وأن محمدا لم يختلقه كما يزعمون .
 وفى هذا رد لقولهم : « إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ » .

الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم
 استوى على العرش ، مآلكنم من دونه من وى ولا شفيع ،
 أفلا تتذكرون (٤) يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه
 فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون (٥) ذلك عالم الغيب
 والشهادة العزيز الرحيم (٦) الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق
 لانسان من طين (٧) ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين (٨) ثم

سَوَاءٌ وَتَفْخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩)

المعنى الجملى

بعد أن أثبت سبحانه صحة الرسالة - بين ما يجب على الرسول من الدعاء إلى
توحيد الله ، وإقامة الأدلة على ذلك .

الإيضاح

(الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام) أى الله سبحانه هو
الخالق للسموات والأرض وما بينهما فى ستة أطوار فى نظر الناظرين إليها ، وليس
المراد اليوم المعروف ، لأنه قبل خلق السموات لم يكن ليل ولا نهار ، وقد تقدم
تفصيل ذلك فى سورة الفرقان .

(ثم استوى على العرش) تقدم بيان هذا فى سورة يونس وهود وطه .

· (مالكم من دونه من ولى ولا شفيع) أى ليس لكم أيها الناس من يلى أموركم
وينصرمكم منه إن أراد بكم ضرا ، ولا يشفع لكم عنده إن هو عاقبكم على معصيتكم إياه .

والخلاصة : فإياه فاتخذوه وليا ، وبه وبطاعته فاستعينوا على أموركم ، فإنه يمنعكم
ممن أرادكم بسوء ، ولا يقدر أحد على دفع السوء عنكم ، إذا هو أراد وقوعه بكم ، لأنه
لا يقهره قاهر ، ولا يغلبه غالب .

ثم أمرهم بالتذكر والتدبر فى الأدلة ، فقال :

(أفلا تتذكرون ؟) أى أفلا تعتبرون وتتفكرون أيها العابدون غيره ، المتوكلون

على من عداه . تعالى الله وتقدس أن يكون له نظير أو شريك ، لا إله إلا هو
ولا رب سواه .

(يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) تدبير الأمر : النظر فى دابره وعاقبته ليحيى محمود الغيبة ، وتدبير الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم عروجه إليه تمثيل لإظهار عظمته ، كما يُصَدِّرُ الملك أوامره ، ثم يتلقى من أعوانه ما يدل على تنفيذها .

(فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) أى يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، ثم يصير الأمر كله إليه ليحكم فيه فى يوم مقداره ألف سنة مما كنا نعدده فى هذه الحياة .

والمراد بالألف الزمن المتطاوّل ، وليس المقصد منه حقيقة العدد ، إذ هو عند العرب منتهى المراتب العددية ، وأقصى غاياتها ، وليس هناك مرتبة فوقه إلا ما يتفرع منه من أعداد مراتبها .

قال القرطبى : المعنى إن الله تعالى جعله فى صعوبته على الكفار كخمسين ألف سنة فإنه ابن عباس ، والعرب تصف أيام المكروه بالطول ، وأيام السرور بالقصر ، قال شاعرهم :

ويوم كظّل الرمح قصر طوله دم الزقّ عنا واصطفق الزاهر اهـ

(ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شئ خلقه) أى ذلك المدبر لهذه الأمور ، هو العالم بما يغيب عن أبصاركم ، مما تكنه الصدور ، وتخفيه النفوس ، وما لم يكن بعد مما هو كائن ، وبما شاهدته الأبصار وعينته . وهو الشديد فى انتقامه ممن كفر به ، وأشرك معه غيره ، وكذب رسله ، وهو الرحيم بمن تاب من ضلالاته ، ورجع إلى الإيمان به وبرسوله ، وعمل صالحا ، وهو الذى أحسن خلق الأشياء وأحكمها .

ولما ذكر خلق السموات والأرض شرع يذكر خلق الإنسان ، فقال :

(وبدأ خلق الإنسان من طين) أى وبدأ خلق آدم أبى البشر من الطين ، وقد

يكون المعنى إن الطين ماء و تراب مجتمعان ، والآدمى أصله منى ، والمنى من الغذاء ، والأغذية إما حيوانية ، وإما نباتية ، والحيوانية ترجع إلى النباتية ، والنبات وجوده بالماء والتراب وهو الطين .

(ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) أى ثم جعل ذريته يتناسلون كذلك من نقطة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة .

(ثم سواه ونفخ فيه من روحه) أى ثم عدّله بتكميل أعضائه فى الرحم ، وتصويره على أحسن صورة ، ونفخ فيه من روحه ، وجعلها تتعلق ببدنه ، فيبدأ يتحرك ، وتظهر فيه آثار الحياة ، ثم ينطق ويتكلم .

(وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) أى وأنعم عليكم ، فأعطاكم السمع تسمعون به الأصوات ، والأبصار تبصرون بها المرئيات ، والأفئدة تميزون بها بين الخير والشر ، وبين الحق والباطل .

ثم بين أن الإنسان قابل هذه النعم بالكفران إلا من رحم الله ، فقال :
(قليلا ما تشكرون) أى وأنتم تشكرون ربكم قليلا من الشكر على هذه النعم التى أنعم بها عليكم باستعمالها فى طاعة الله وعمل ما يرضيه .

وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الرسالة بقوله : « لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ » .
والوحدانية بقوله : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » الخ . أردف ذلك بذكر البعث ، واستبعاد المشركين له ، ثم الرد عليهم .

الإيضاح

(وقالوا أنذا ضللتنا في الأرض أنذا لنرى خلق جديد ؟) أى وقال المشركون بالله المكذبون بالبعث: أنذا صارت لحومنا وعظامنا ترابا في الأرض؟ أنبعث خلقا جديدا؟
وخلاصة مقالهم: عظيم الاستبعاد للإعادة بأنها كيف تعقل وقد تمزقت الجسوم وتفرقت في أجزاء الأرض؟ .

وهم قد قاسوا قدرة الخالق الذى بدأهم أول مرة ، وأنشأهم من العدم بقدرة المخلوق العاجز - شتان بينهما - إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون .

ثم زاد في النعى عليهم والإنكار لآرائهم بقوله :
(بل هم بقاء ربهم كافرون) أى ما بهؤلاء المشركين جحود قدرة الله على ما يشاء تحسب ، بل هم تعدوا ذلك إلى الجحود بقاء ربهم حذر عقابه ، وخوف مجازاته بإيham على معاصيهم . فهم من جرأ ذلك يمحذون لقاءه .

ثم رد عليهم مقالتهم ، وشديد استنكارهم بقوله :
(قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) أصل التوفى أخذ الشيء وافيها كاملا ، أى قل لهؤلاء المشركين : إن ملك الموت الذى وكل بقبض أرواحكم يستوفى العدد الذى كتب عليه الموت منكم حين انتهاء أجله ، ثم تردون إلى ربكم يوم القيامة أحياء كهيتكم قبل وفاتكم ، فيجازى المحسن منكم بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، وفي هذا إثبات للبعث مع تهديدهم وتحذيرهم ، وإشارة إلى أن القدر على الإماتة قادر على الإحياء .

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ

أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا
عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)

المعنى الجملى

بعد أن أثبت البعث والرجوع - بين حال المشركين حين معاينة العذاب ،
ووقوفهم بين يدى الله ذليلين ناكسى رؤوسهم من الحياء والخجل طابى الرجوع إلى
الدنيا لتحسين أعمالهم ، ثم بين أنه لا سبيل إلى العودة ، لأنهم لوردوا لعادوا إلى ما نهوا
عنه ، وأنه قد ثبت فى قضائه ، وسبق فى وعيده أن جهنم تمتلئ من الجنة والناس ممن
ساءت أعمالهم ، وقبحت أفعالهم . فلا يصحون لدخول الجنة ، ويقال لهم : ذوقوا
عذاب النار جزاء ما عملتم فى الدنيا ، وقد نسيتم لقاء ربكم ، فجازاكم بفعلكم ، وجعلكم
كالنسيين من رحمته .

الإيضاح

(ولو ترى إذ الجرّمون ناكس رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا
نعمل صالحا) أى ولو ترى أيها الرسول هؤلاء القائنين : أنذا ضللنا فى الأرض أثنا فى
خلق جديد - ناكسى رؤوسهم عند ربهم حياء وخجلا منه ، لما سلف منهم من
معاصيهم له فى الدنيا ، قائلين : ربنا أبصرنا الحشر ، وسمعنا قول الرسول وصدقنا به ،
فارجعنا إلى الدنيا نعمل صالح الأعمال ، وهذا منهم عود على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا
النار ، كما حكى عنهم سبحانه قولهم : « لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا
فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ » .

ثم ادّعوا اطمئنان قلوبهم حينئذ ، وقدرتهم على فهم معانى الآيات ، والعمل
بموجبها ، كما حكى الله عنهم بقوله :

(إنا موقنون) أى إنا قد أيقن الآن ما كنا به فى الدنيا جهالا من وحدانيتك ، وأنه لا يصلح للعبادة سواك ، وأنتك تحيى وتميت ، وتبعث من فى القبور بعد الممات والفناء ، وتفعل ما تشاء .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ، فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بَيَّاتٍ رَبَّنَا » الآية .

(ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) أى ولو أردنا أن نهدى كل نفس ما تهتدى به إلى الإيمان والعمل الصالح لفعلنا ، ولكن تديرنا للخلق على نظم كاملة ، كفيلة بمصالحه ، قضى أن نضع كل نفس فى المرتبة التى هى أهل لها على حسب استعدادها ، كما توضع الإنسان العين فى موضع لا يصلح له الظفر والإصبع ، والمعدة فى موضع لا يصلح له القلب ، وهذا هو المراد من قوله :

(ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) أى ولكن سبق وعيدى بملأ جهنم من الجنة والناس الذين هم أهل لها ، على حسب استعدادهم ولا يصلحون لدخول الجنة ؛ كما لا يعيش البعوض والذباب ، إلا فى الأماكن القذرة ، ليخلص الجو من العفونات ، ولو جعلوا فى القصور النظيفة النقية ما عاشوا فيها ، إذ لا يجدون فيها غذاء ولا منفعة لهما :

وهكذا هؤلاء إذا رأوا العالم المضى المشرق ، والأنوار المتلاثلة ، والحياة الطيبة فى الجنة لم يستطيعوا دخولها ، وعجزوا عن ذلك ، فما مثلم إلا مثل السمك الذى لا يعيش فى البر ، ومثل ذوات الأربع التى لا تعيش فى البحر .

ولما بين لهم أنه لا رجوع إلى الدنيا أنبهم على ما عملوا من تدسية نفوسهم بفعل المعاصى ، وترك الطاعة له ، فقال :

(فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا) أى فذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم بهذا اليوم ، واستبعادكم وقوعه ، وعملكم عمل من لا يظن أنه راجع إلى ربه فلاقيه .

ثم ذكر لهم جزاءهم على فعل النعاصى ، فقال :

(إِنَّا نَسِينَاكُمْ) أى إِنَّا نَسْنَعُكُمْ مَعَامِلَةَ النَّاسِ ، لَأنه تعالى لا ينسى شيئاً ، ولا يضل عن شيء ، وهذا أسبوب فى الكلام يسمى أسبوب المشاكلة ، ونحوه : « فَأَلْيَوْمَ نَذَسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا » وقوله : « تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ » وقوله : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » .

(وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) أى وذوقوا عذاباً تخلدون فيه إلى غير نهاية بسبب كفركم وتكذيبكم بآيات ربكم ، واجترأكم للشروع والآثام .

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)

شرح المفردات

ذكروا بها : أى وعظوا ، خروا : أى سقطوا ، سبجوا بحمد ربهم : أى تزهروا عما لا يليق به ، تتجافى : أى ترتفع وتبتعد ، قال عبد الله بن رواحة :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الصبح ساطع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

والجنوب : واحدها جنب ، وهو الشق . والمضاجع : واحدها مضجع ، وهو مكان النوم ، أخفى لهم : أى خفى لهم ، من قرّة أعين : أى من شيء نفيس تقرّبه أعينهم وتسره .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه علامة أهل الكفر من طأطأة الرؤوس خجلا وحياء مما صنعوا فى الدنيا ، وذكر ما يلاقونه من العذاب المبين يوم القيامة - عطف ذلك بذكر علامة أهل الإيمان من تذللهم لربهم ، وتسبيحهم بحمده ، وبخافتهم المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ، ثم أردفه بذكر ما يلاقونه من نعم مقيم ، وقرء أعين جزاء لهم على جميل أعمالهم ، ومحاسن أقوالهم .

الإيضاح

(إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون) أى ما يصدق بحججنا وآيات كتابنا إلا الذين إذا وعظوا بها خروا لله سجدا تذلا واستكانة لعظمته ، وإقرارا بعبوديته ، ونزهوه فى سجودهم عما لا يليق به مما يصفه به أهل الكفر من الصاحبة والولد والشريك ، يفعلون ذلك وهم لا يستكبرون عن طاعته كما يفعل أهل الفسق والفجور حين يسمعونها ، فإنهم يولون مستكبرين ، كأن لم يسمعوها .

ثم ذكر بقية محاسنهم بقوله :

(تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون) أى يتنجسون عن مضاجعهم التى يضطجعون فيها لمناهم ، فلا ينامون ، دعين ربهم خوفا من سخطه وعذابه ، وطمعا فى عفوه عنهم ، وتفضله عليهم برحمته ومغفرته ، ومما رزقناهم من المال ينفقون فى وجوه البر ، ويؤدون حقوق الله التى أوجبها عليهم فيه ، قال أنس بن مالك : « نزلت فىنا معشر الأنصار ، كنا نصلى المغرب ، فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبى صلى الله عليه وسلم » ، وعن معاذ بن جبل عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » قال : هى قيام العبد أول الليل .

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطأته ولحافه من بين حبة وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندى ، وشفقة مما عندى ؛ ورجل غزا في سبيل الله تعالى فانهزم ، فعم ما عنده من الفرار ، وماله في الرجوع ، فرجع حتى أهرق دمه رغبة فيما عندى ، وشفقة بما عندى . فيقول الله عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى ، ورهبة مما عندى حتى أهرق دمه . »

وأخرج ابن جرير والحاكم وابن مردويه عن معاذ بن جبل قال : « كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه ، ونحن نسير ؛ فقلت : يا نبي الله أخبرني عما يدخلني الجنة . ويأعدني عن النار . قال : لقد سألت عن عظيم وإنه يسير على من يسره الله تعالى عليه - تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ؛ ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل : ثم قرأ : تتجافى جنوبهم عن المضاجع - حتى بلغ - جزاء بما كانوا يعملون ؛ ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ فقلت : بلى يا رسول الله ، فقال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله ؛ ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ فقلت : بلى يا نبي الله ، فأخذ بلسانه ؛ ثم قال : كفّ عليك هذا ، فقلت : يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يامعاذ ، وهل يكبّ الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم . »

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال في الآية : « تتجافى جنوبهم لذكر الله ، كلما استيقظوا ذكروا الله عز وجل ؛ إما في الصلاة ، وإما في قيام أو قعود ، أو على جنوبهم ، لا يزالون يذكرون الله تعالى . »

وفال الحسن ومجاهد والأوزاعي وغيرهم : إن المراد بالتجافى القيام لصلاة النوافل بالليل .

بعد أن ذكر جزاء المستكبرين أرشد إلى جزاء المتواضعين بقوله :

(فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) أى فلا يعلم أحد عظيم ما أخفى لهم من النعيم واللذات التى لم يطلع على مثلها أحد جزاء وفافا بما كانوا يعملون من صالح الأعمال ، أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم .

روى الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، بله ما أطلعكم عليه ، اقرءوا إن شئتم : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » .

وأخرج الفريابى وابن أبى شيبه وابن جرير والطبرانى والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : « إنه لمكتوب فى التوراة . لقد أعد الله تعالى للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، ولا يعلم ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، وإنه لفى القرآن : (فلا تعد نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) » .

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ، لَا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢)

تمرح المفردات

أصل الفسق : الخروج : من فسقت الثمرة إذا خرجت من قشرها . ثم استعمال فى الخروج من الطاعة وأحكام الشرع مطلقا ، فهو أعم من الكفر ، وقد يخص به كما فى قوله : « وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » ، والمأوى : المسكن ؛ وأصل النزول : ما يعد للنازل من الطعام والشراب والصلوة ، ثم أطلق على كل عطاء ، والمراد به هنا الثواب والجزاء ، الأدنى : أى الأقرب ؛ والمراد به عذاب الدنيا . فإنه أقرب من عذاب الآخرة وأقل منه ، وقد ابتلاهم الله بسنى جذب وقطأ أهلكت الزرع والضرع ، والعذاب الأكبر : عذاب يوم القيامة .

المعنى الجملى

لما بين حالى الجرمين والمؤمنين - عطف على ذلك بسؤال العقلاء : هل يستوى الفريقان ؟ وبين أنهما لا يستويان ، ثم فصل ذلك ببيان مآل كل منهما يوم القيامة .

الإيضاح

(أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لا يستويون) أى أفهذا الكافر المكذب وعد الله ووعيدة ، الخالف أمره ونهيه ، كهذا المؤمن بالله المصدق وعده ووعيدة ، المطيع لأمره ونهيه - كلا - لا يستويون عند الله ولا يعادل الكافر به والمؤمنون . وخلاصة ذلك : أبعد ظهور ما بينهما من تفاوت بين يظن أن المؤمن الذى حكيت أوصافه كالكافر الذى ذكرت قبائح أعماله ؟ كلا - إن الفضل بينهما لا يخفى على ذى عينين .

ونحو الآية قوله : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » وقوله :

« أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ » وقوله : « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ » الآية .

و بعد أن نفى استواءهما أتبعه بذكر حال كل منهما على سبيل التفصيل :

(أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون) أى أما الذين صدقوا الله ورسوله فيما أمروا ونهوا - فلهم مساكن فيها البساتين والدور، والغرف العالية جزاء لهم على جليل أعمالهم ، وطيب أفعالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا .

(وأما الذين فسقوا فإخوانهم النار) أى وأما الذين كفروا بالله ، واجتروا الشيور والآثام ، فساكنهم التي يأوون إليها في الآخرة ويستريحون هي لنار ، وبئس القرار .

وفي هذا ضرب من التهمك بهم . إذ جعلت النار ملجأ ومستراحاً لهم يستريحون إليها ، فهو كقولهم : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

ثم بين حالهم فيها ونفورهم منها ، فقال :

(كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها) أى كلما شافوا الخروج منها ، وظنوا أنه قد تيسر لهم ذلك ، وهم بعد في غمراتها أعيدها فيها ، ودفعوا إلى قعرها .

روى أن لهب النار يضر بهم فيرتفعون إلى أعلاها ، حتى إذا قربوا من أبوابها ، وأرادوا أن يخرجوا منها يضر بهم اللهب فيهبون إلى قعرها - وهكذا يفعل بهم أبداً .

قال الفضيل بن عياض : والله إن الأيدي لوثقة ، وإن اللهب ليرفعهم ، والملائكة تقمعهم .

ثم ذكر ما يقال لهم على سبيل التقرير والتوبيخ :

(وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) أى ذوقوا عذابها الذي كنتم تكذبون في الدنيا أن الله قد أعد لأهل الشرك به .

ثم بين أن عذاب الآخرة له مقدمات فى الدنيا ، لأن الذنب مستوجب لنتأجه عاجلا وأجلا ، فقال :

(ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) أى ولنبتليهم بمصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها من الجماعات والقتل ، ونحو ذلك ، عظة لهم ليقلموا عن ذنوبهم قبل العذاب الأكبر ، وهو عذاب يوم القيامة .

ثم ذكر حال من قابل آيات الله بالإعراض ، بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد ، فقال :

(ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ؟) أى لا أظلم ممن ذكره الله بحججه ، وآى كتابه ورسله ، ثم أعرض عن ذلك كله ، ولم يتعظ به ، بل تناساه ، كأنه لا يعرفه .

ثم بين جزاءه على ذلك ، فقال :

(إنا من الجرمين منتقمون) أى إنا سننتقم أشد الانتقام من الذين اجتروا السيئات واكذبوا الآثام والمعاصى . روى ابن جرير بسنده عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ثلاث من فعلن فقد أجرم : من عقد لواء فى غير حق ، أو عقّ والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره ، فقد أجرم ، يقول الله : (من الجرمين منتقمون) » .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)

المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه فى أول السورة الرسالة والتوحيد والبعث - عاد فى آخرها إلى ذكرها مرة أخرى ، فقال :

الإيضاح

(ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى سريّة من لقائه) المرية : الشك ، أى إنا آتينا موسى التوراة مثل ما آتيناك القرآن ، وأنزلنا عليك الوحي مثل ما أنزلناه عليه ، فلا تكن فى شك من لقائك الكتاب ، فأنت لست ببدع من الرسل كما قال تعالى : « قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ » .

وذكر موسى من بين سائر الرسل لقرب عهده من النبى صلى الله عليه وسلم ووجود من كان على دينه بينهم إلزاماً لهم ، ولم يذكر عيسى ، لأن اليهود ما كانوا يعترفون بنبوته ، والنصارى كانوا يقرون بنبوة موسى ، فذكر الجمع عليه .

وقد يكون ذكره لأن الآية جاءت تسليّة لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لما أتى بكل آية وذكّرهم بها ، وأعرض قومه عنها حزن حزناً شديداً ، فقل له : تذكر حال موسى ولا تحزن ، فإنه قد نقي مثل ما لقيت ، وأودى كما أوديت ، فإن من لم يؤمن به آذاه ، كفرعون وقومه ، ومن آمنوا به من بنى إسرائيل آذوه أيضاً بالخلافة له كقولهم : « أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً » ، وقولهم : « اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا » ، وغيره من الأنبياء لم يؤذ به إلا من لم يؤمن به .

(وجعلناه هدى لبنى إسرائيل) أى وجعلنا الكتاب الذى آتيناه مرشداً لبنى إسرائيل إلى طريق الهدى كما جعلناك مرشداً لأمتك .

ونحو الآية قوله : « وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا » .

(وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) أى وجعلنا من بنى إسرائيل رؤساء فى الخير يهدون أتباعهم وأهل القبول منهم بإذننا لهم وتقويتنا إياهم ، لأنهم صبروا على طاعتنا ، وعزفت أنفسهم عن لذات الدنيا وشهواتها ، وكانوا من أهل اليقين بحججنا وبما تبين لهم من الحق .
وفى ذلك إيحاء إلى أن الكتاب الذى آتيناكه سيكون هداية للناس ، وسيكون من أتباعه أئمة يهدون مش تلك الهداية .

(إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أى إن ربك يقضى بين خلقه يوم القيامة فيما كانوا فيه فى الدنيا يختلفون من أمور الدين والثواب والعقاب ، فيدخل الجنة أهل الحق . ويدخل النار أهل الباطل .

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى
الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ،
أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)

المعنى الجملى

بعد أن أعاد ذكر الرسالة فى قوله : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » أعاد هنا ذكر التوحيد .

الإيضاح

(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ ؟) أى أَوَلَمْ يبين لهم طريق الحق كثرةً من أهلكنا من القرون الماضية الذين يمشون فى أرضهم ، ويشاهدون آثار هلاكهم كعاد وثمود وقوم لوط .

والخلاصة : أو لم يرشد هؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم لرسولهم ، ومخالفتهم إياهم فيما جاءهم به من سبل الحق ، فلم يُبق منهم باقية ، ونحو الآية قوله : « هَلْ نَحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا » ، وقوله : « فَتَبْتَ بَيُوتَهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا » ، وقوله : « فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ » .

(إن في ذلك لآيات) أى إن في خلاء مساكن القرون الذين أهلكتهم من أهلها الذين كانوا عُمَارَهَا بِأَهْلَاكِهِمْ ، لما كذبوا رسلهم ، جحدوا بآياتنا ، وعبدوا غير الله لآياتٍ لهم وعظمت يتعظون بها لو كانوا من أولى الحجا .

(أفلا يسمعون ؟) عظمت الله وتذكيره إياهم ، وتعريفهم مواضع حججه ؛ سماع تدبر وتفكر ليعتبروا بها .

وبعد أن بين قدرته على الإهلاك - أرشد إلى قدرته على الإحياء ليبين أن النفع والضرر بيده تعالى ، فقال :

(أو لم يروا أن نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم) الأرض الجرز : هى التى جرز نباتها وقطع ، إما لعدم الماء ، وإما لأنه رعى وأكل ، يقال : ناقة جرزة إذا كانت تأكل كل شئ ، ورجل جرزة أى أكل : أى ألم يشاهد هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت ، والنشر بعد الفساد - أنا بقدرتنا نسوق الماء إلى الأرض اليابسة التى لانبات فيها ، فنخرج به زرعاً أخضر تأكل منه ماشيتهم ، وتتغذى به أجسامهم ، فيعيشون به ؟

(أفلا يبصرون ؟) أى أفلا يرون ذلك بأعينهم ، فيعلموا أن القدرة التى بها فعنا ذلك لا يتعذر عليها أن تحيى الأموات وتنشرهم من قبورهم ، وتعيدهم بهياتهم التى كانوا بها قبل موتهم ؟ .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ
لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ
إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ (٣٠)

شرح المفردات

الفتح : أى الفصل فى الخصومة بيننا وبينكم ، وينظرون : أى يمهون
ويؤخرون .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت الرسالة والتوحيد - عطف على ذلك ذكر الحشر، وبذلك صار ترتيب
آخر السورة متناسقا مع ترتيب أولها ، فقد ذكر الرسالة فى أولها بقوله (لتندرقوما)
وفى آخرها بقوله (وتقد آتينا موسى الكتاب) وذكر التوحيد فى أولها بقوله (الذى
خلق السموات والأرض) وفى آخرها بقوله (أو لم يهد لهم) وقوله (أو لم يروا أنا
نسوق الماء) وذكر الحشر فى أولها بقوله (أنذا ضللتنا فى الأرض) وفى آخرها بقوله :
(ويقولون متى هذا الفتح ؟) .

الإيضاح

(ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ؟) أى ويقول المشركون على طريق
الاستهزاء والاستبعاد : متى تُنصر علينا أيها الرسول كما تزعم أن لك وقتا تنتصر علينا
وينتقم الله منا ؟ وما نراك وأصحابك إلا مختلفين خائفين أذلة - إن كنتم صادقين فى الذى
تقولون من أنا معاقبون على تكذيبنا الرسول ، وعبادة الآلهة والأوثان ، وهم ولا شك
لا يستعجلونه إلا لاستبعادهم حصوله وإنكارهم إياه ، وتكذيبهم له .
وقد أمر الله نبيه أن يحجبهم عن استبعادهم موجبها لهم بقوله :

(قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون) أى قل لهم : إذا حل بكم بأس الله وسخطه فى الدنيا وفى الآخرة لا ينفعكم إيمانكم الذى تُحَدِّثُونَهُ فى هذا اليوم ، ولا تؤخرون للتوبة والمراجعة .

والخلاصة : لا تستعجلوا به ولا تستهزئوا ، فكأنى بكم وقد حل ذلك اليوم وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان ، واستنظرتم حلول العذاب ، فلم تُنظروا .

ثم ختم السورة بأمر رسوله بالإعراض عنهم ، وانتظار الفتح بينه وبينهم ، فقال : (فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون) أى فأعرض عن هؤلاء المشركين ، ولا تبال بهم ، وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، وانتظر ما الله صانع بهم ، فإنه سينجزك ما وعد ، وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد ، وهم منتظرون يتر بصون بكم الدوائر كما قال « أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبَ اللَّيْلِ » .

وسترى عاقبة صبرك عليهم ، وعلى أداء رسالة ربك بنصرتك وتأيدك ، وسيجدون تحب ما ينتظرون فيك ، وفى أصحابك من وبيل عقاب الله لهم ، وحول عذابه بهم .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

بمجل ما اشتملت عليه السورة الكريمة من الموضوعات

(١) إثبات رسالة النبي صلى الله عليه وسلم و بيان أن مشركى العرب لم يأتهم رسول من قبله .

(٢) إثبات وحدانية الله ، وأنه المتصرف فى الكون ، المدبر له عى أتم نظام وأحكم وجه .

(٣) إثبات البعث والنشور ، و بيان أنه يكون فى يوم كآلف سنة مما تعدون .

(٤) تفصيل خلق الإنسان فى النشأة الأولى ، و بيان الأطوار التى مرت به ، حتى صار بشراً سوياً .

● وصف الذلة التى يكون عليها المجرمون يوم القيامة ، وطلبهم الرجوع إلى الدنيا لإصلاح أحوالهم ، ورفض ما طلبوا لعدم استعدادهم للخير والفلاح .

(٦) تفصيل أحوال المؤمنين فى الدنيا ، وذكر ما أعدده الله لهم من النعيم ، والثواب العظيم فى الآخرة .

(٧) استعجال الكفار لحجى يوم القيامة استبعاداً منهم لحصوله .

سورة الأحزاب

هى مدينة نزلت بعد آل عمران .

وعدة آيها ثلاث وسبعون .

ووجه اتصالها بما قبلها تشابه مطلع هذه وخاتمة السالفة ، فإن تلك ختمت بأمر
النبي صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن الكافرين ، وانتظار عذابهم ، وهذه بدئت
بأمره عليه الصلاة والسلام بالتقوى ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين واتباع ما أوحى
إليه من ربه مع التوكل عليه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣)

شرح المفردات

قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب
الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله ، وتوكل على الله : أى
فوض أمورك إليه ، الوكيل : الحافظ للأمور .

المعنى الجملى

أخرج ابن جرير عن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن أهل
مكة ، ومنهم الوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة دعوا النبي صلى الله عليه وسلم أن

يرجع عن قوله : على أن يعطوه شطر أموالهم ، وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلاؤه ، فنزلت الآيات .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) أى يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ خَفِ اللَّهَ بِطَاعَتِهِ ، وَدَاءَ فَرَائِضِهِ ، وَوَجِبَ حَقُّهُ عَلَيْكَ ، وَتَرَكَ مُحَارَمَهُ ، وَاتَّقِ حُدُودَهُ .

والخلاصة : يَا أَيُّهَا الْمُخْبِرُ عَنَّا ، الْمَأْمُونُ عَلَى وَحِينَا ، اثْبَتْ عَلَى نَقْوَى اللَّهِ ، وَدَمِ عَلَيْهَا .

ولما وجه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم الأمر بتقوى الوليِّ الودود - أتبعه بالنهي عن الالتفات نحو العدو الحسود ، فقال :

(وَلَا تَطْعَمِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) أى وَلَا تَطْعَمِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَكَ : اطْرُدْ عَنَّا أَتْبَاعَكَ مِنْ ضَعْفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ، حَتَّى نَجَالِسَكَ ، وَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ لَكَ الْإِيمَانَ وَالنَّصِيحَةَ ، وَهُمْ لَا يَأْتُونَكَ وَأَصْحَابُكَ إِلَّا خَبَالًا ، فَلَا تَقْبَلْ لَهُمْ رَأْيَا ، وَلَا تَسْتَشِرْهُمْ مَسْتَنْصِحِيهِمْ ، فَإِنَّهُمْ أَعْدَاؤُكَ ، وَيُودُونَ هَلَكَكَ ، وَإِطْفَاءَ نُورِ دِينِكَ .

روى أنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة تابعه ناس من اليهود نفاقا ، وكان يُبلين لهم جانبته ، ويظهرون له النصيح خداعا ؛ فحذره الله منهم ، ونهيه إلى عداوتهم .

ثم علل ما تقدم بقوله :

(إِنْ اللَّهُ كَانَ عَالِمًا حَكِيمًا) أى إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا تَضْمُرُهُ نَفُوسُهُمْ ، وَمَا الَّذِي يَقْصُدُونَهُ مِنْ إِظْهَارِ النَّصِيحَةِ ، وَبِالَّذِي تَنْطَوِي عَلَيْهِ جَوَانِحُهُمْ ، حَكِيمٌ فِي تَدْبِيرِ أَمْرِكَ ، وَأَمْرُ أَصْحَابِكَ ، وَسَائِرِ شُؤْنِ خَلْقِهِ ، فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ تَتَّبِعَ أَوْامِرَهُ وَتَطَاعَ .

والخلاصة : إِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْعَلِيمُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ ، الْحَكِيمُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَتَدْبِيرِ شُؤْنِ خَلْقِهِ .

ثم أكد وجوب الامتثال بأن الأمر لك هو مريبك في نعمه ، الغامر لك
 بإحسانه ، فهو الجدير أن يتبع أمره ، ويجتنب نهيه ، فقال :
 (واتبع ما يوحى إليك من ربك) أى واعمل بما ينزله عليك ربك من وحيه ،
 وآى كتابه .

ثم عدل ذلك بما يرغبه في اتباع الوحي ، وبما ينأى به عن طاعة الكافرين
 والمنافقين ، فقال :

(إن الله كان بما تعملون خبيراً) أى إن الله خبير بما تعمل أنت وأصحابك ،
 لا يخفى عليه شيء منه ، ثم يجازيكم على ذلك بما وعدكم من الجزاء .

ثم أمر رسوله بتفويض أموره إليه وحده ، فقال :
 (وتوكل على الله) أى وفوض أمورك إليه وحده ، واعتمد عليه في شئونك .
 (وكفى بالله وكيلاً) أى وكفى به حافظاً ، يوكل إياه جميع الشئون ، فلا تنتفت
 في شيء من أمرك إلى غيره .

والخلاصة : حسبك الله ، فإن أراد نفعاً لا يدفعه أحد عنك ، وإن أراد ضراً
 لم يمنعه منك أحد .

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ أَلَلًا
 تُظَاهِرُونَ مِنْهُمْ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَلِكَكُمْ
 قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) اذْعُوهُمْ
 لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ
 وَمَوَالِيكُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ
 قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥)

شرح المفردات

جعل : أى خلق ، ويقال : ظاهر الرجل من زوجته إذا قال لها : أنت على كظهر أمى ، يريدون أنت محرمة على كأتحمم الأم ، وكانوا فى الجاهلية يُجرون على المظاهر منها حكم الأم ، والأدعياء : واحدٌهم دعى ، وهو الذى تدعى بنوته ، وقد كانت تجرى عليه أحكام الابن فى الجاهلية وصدر الإسلام ، السبيل : أى طريق الحق ، أقسط : أى أعدل ، ومواليكم : أى أولياؤكم فيه .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله نبيه بتقواه ، والخوف منه ، وحذره من طاعة الكفار والمنافقين ، والخوف منهم - ضرب لنا مثلاً يبين أنه لا يجتمع خوف من الله وخوف من سواه ، فذكر أنه ليس للإنسان قنبان حتى يطيع بأحدهما ويعصى بالآخر ، وإذا لم يكن المرء إلا قلب واحد ، فحق اتجه لأحد الشيئين صد عن الآخر ، فطاعة الله تصد عن طاعة سواه ، وهكذا لا تجتمع الزوجية والأُمومة فى امرأة ، والمُنة الحقيقية والنبي فى إنسان .
روى الشيخان والترمذى والنسائى فى جماعة آخرين عن ابن عمر رضى الله عنهما «أن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن : (ادعوهم لأبائهم) الآية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنت زيد بن حارثة بن شراحيل .

وكان من خبره أنه سبى من قبيلته كلب وهو صغير ، فاشتراه حكيم بن حزام لعنته خديجة ، فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له ، ثم طلبة أبوه وعمه ؛ فخير بين أن يبقى مع رسول الله ، وأن يذهب مع أبيه ، فاختر البقاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعتقه وتبناه ، وكانوا يقولون زيد بن محمد ؛ فلما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب ، وكانت زوجاً لزيد وطنقها ؛ قال المنافقون : تزوج محمد امرأة ابنه ،

وهو ينهى عن ذلك ، فنزلت الآية لنفى أن يكون للمتبني حكم الابن حقيقة في جميع الأحكام التى تعطى لابن .

الإيضاح

(ما جعل الله لرجل من قبيلين فى جوفه) كان أهل مكة يقولون : إن مَعْمَرًا الفِهْرِيَّ له قلبان لقوة حفظه ، وروى أنه كان يقول : إن لى قلبين أفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد ، وكانت العرب تزعم أن كل أريب له قلبان ، فأكذب الله فى هذه الآية قوله ونفاهم :

(وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) أى ولم يجعل الله لكم أيها الرجال نساءكم اللائى تقولون لهن : أنتنّ علينا كظهور أمهاتنا - أمهاتكم ، بل جعل ذلك من قبلكم كذبا والزمكم عقوبة .

وقد كان الرجل فى الجاهلية متى قال هذه المقالة لامرأته صارت حراما عليه حرمة مؤبدة ، فجاء الإسلام ومنع هذا التأييد ، وجعل الحرمة مؤقتة ، حتى يؤدى كفارة (غرامة) لانتهائها حرمة الدين ، إذ حرم ما أحل الله .

(وما جعل أديعاءكم أبنءكم) أى ولم يجعل الله من ادعى أحدكم أنه ابنه ، وهو ابن غيره - ابنائه بدعواه فحسب .

وفى هذا إبطال لما كان فى الجاهلية وصدر الإسلام من أنه : إذا تبني الرجل ابن غيره أجريت عليه أحكام الابن النسبى ، وقد تبني رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة زبدا بن حارثة ، وأخطأ أبو عامر بن ربيعة وأبو حذيفة سالمنا .

ثم أكد ما سبق بقوله :

(ذلكم قولكم بأفواهكم) أى هذا الذى تقدم من قول الرجل لامرأته : أنت على كظهر أمى ، ودعاء من ليس بابنه أنه ابنه إنما هو قولكم بأفواهكم ، لاحقيقة له ، فلا تصير الزوجة أما ، ولا يثبت بهذه دعوى النسب .

(والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) أى والله هو الصادق ، الذى يقول الحق وبقوله : يثبت نسب من أثبت نسبه ، وبه تكون المرأة أما إذا حكم بذلك ، وهو يبين لعباده سبيل الحق ، ويهديهم إلى طريق الرشاد ، فدعوا قولكم ، وخذوا بقوله عز اسمه .

وخلاصة ما سلف :

(١) إنه لم ير فى حكمته أن يجعل للإنسان قلبين ، لأنه إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر ، فأحدهما يكون نافذة غير محتاج إليه ، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك ، وهذا يؤدى إلى التناقض فى أعمال الإنسان ، فيكون مريدا للشيء كرهها له ، وظان له موفنا به فى حال واحدة ، وهذا لن يكون .

(٢) إنه لم ير أن تكون المرأة أما لرجل وزوج له ، لأن الأم مخدومة ، مخفوض لها الجناج ، والمرأة مستخدمة فى المصالح الزوجية على وجوه شتى .

(٣) لم يشأ فى حكمته أن يكون الرجل الواحد دعيا لرجل وابنا له ، لأن البنوة نسب أصيل عريق ، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لاغير ، ولا يجتمع فى الشيء الواحد أن يكون أصيلا غير أصيل .

ولما ذكر أنه يقول الحق فصل هذا الحق بقوله :

(ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله) أى انسبوا أديعائكم الذين أخقتم أنسابهم بكم - لأبائكم ، فقولوا : زيد بن حارثة ، ولا تقولوا زيد بن محمد ، فذلك أعدل فى حكم الله وأصوب من دعائكم إياهم لغير آبائهم .

(فإن لم تعلموا آبائهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم) أى فإن أتم أيها الناس لم تعرفوا آباء أديعائكم من هم ؟ حتى تنسبهم إليهم ، وتلحقهم بهم ؛ فهم إخوانكم فى الدين إن كانوا قد دخلوا فى دينكم ، ومواليكم إن كانوا محررين أى قولوا : هو مولى فلان ، ولهذا قيل لسالم بعد نزول الآية : مولى حذيفة ، وكان قد تبناه قبل .

(وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) أى ولا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين قبل النهى أو بعده نسيانا أو سبق لسان .

(ولكن ما تعمدت قلوبكم) ولكن الجناح والإثم عليكم فيما فعلتموه عامدين . وخلاصة ما سلف : إنه لا إثم عليكم إذا نسبتم الولد لغير أبيه خطأ غير مقصود ، كأن سهوتم أو سبق لسانكم بما تقولون ، ولكن الإثم عليكم إذا قلتم ذلك متعمدين . أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة أنه قال فى الآية : « لو دعوت رجلا لغير أبيه ، وأنت ترى أنه أبوه لم يكن عليك بأس ، ولكن ما تعمدت وقصدت دعاه لغير أبيه » .

(وكان الله غفورا رحيمًا) أى وكان الله ستارا للذنوب من ظاهر من زوجته ، وقال الزور والباطل من القول ، وذنوب من ادعى ولد غيره ابنا له إذا تبا وراجعا إلى أمر الله . وانتهيا عن قيل الباطل بعد أن نهاهما ؛ رحيمًا بهما فلا يعاقبهما على ذلك بعد تو بهما .

النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ، وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فيما سلف : أن الدعى ليس ابنا لمن تبناه ، فحمد صلى الله عليه وسلم ليس أبا لزيد بن حارثة ، ثم أعقب ذلك بالإرشاد إلى أن المؤمن أخو المؤمن فى الدين ، فلا مانع أن يقول إنسان لآخر : أنت أخى فى الدين - أردف ذلك ببيان أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس أبا لواحد من أمته ، بل أبوته عامة ، وأزواجه أمهاتهم وأبوته أشرف من أبوة النسب ، لأن بها الحياة الحقيقية ، وهذه بها الحياة الغائية ، بل

هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإذا حضهم على الجهاد ونحوه ، فذلك لارتقائهم الروحى ، فإذا كيف يستأذن الناس آباءهم وأمهاتهم حين أمرهم صلى الله عليه وسلم بغزوة تبوك ، وهو أشفق عليهم من الآباء ، بل من أنفسهم .

روى البخارى عن أبى هريرة قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، أقرءوا إن شئتم (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فأَيُّما مؤمن ترك مالا ، فليتره عصبته من كانوا ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً (عيالاً) فليأتنى ، فأنا مولاه » .

وفى الصحيح أن عمر رضى الله عنه قال : « يارسول الله ، والله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال : يارسول الله ، والله لأنت أحب إلى من كل شيء ، حتى من نفسى ، فقال صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر » .

الإيضاح

(النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) أى النبى أشد ولاية ونصرة لهم من أنفسهم ، فإنه عليه الصلاة والسلام لا يأمرهم إلا بما فيه خيرهم وصلاحهم ، ولا ينههم إلا عما يضرهم ويؤذيهم فى دينهم وآخرتهم ، أما النفس فإنها أماراة بالسوء ، وقد تجهل بعض المصالح ، وتخفى عليها بعض المنافع .

وما يلزم هذا أن يكون حكمه نافذاً فيهم ، مقدماً على ما يختارونه لأنفسهم ، كما قال : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا بُؤْمُنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِى شَجَرِ بَنَنَّهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

وخلاصة ذلك : إنه تعالى علم شفقة رسوله صلى الله عليه وسلم على أمته ، وشدة نصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم .

(وأزواجه أمهاتهم) أى هن منزلات منزلة الأمهات فى الحرمة والاحترام ،

والتوقير والإكرام ، وفيما عدا ذلك هن كالأجنبيات ، فلا يحل النظر إليهن ، ولا إرهن ولا نحو ذلك .

وكان التوارث فى بدء الإسلام بالحلف والمؤاخاة بين المسلمين ، فكان المهاجرى يرث الأنصارى دون قراباته وذوى رحمه للأخوة التى آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم حين الهجرة ، فقد آخى بين أبى بكر رضى الله عنه ، وخارجة بن زيد ، وآخى بين عمر وشخص آخر . وآخى بين الزبير ، وكعب بن مالك ، فغير الله الحكم بهذه الآية :

(وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين)
أى وأولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين ، وحق المهاجرين بحق الهجرة فيما كتبه الله ، وفرضه على عباده .

والخلاصة : إن هذه الآية أرجعت الأمور إلى نصابها ، وأبطلت حكما شرع لضرورة عارضة فى بدء الإسلام ، وهو الإرث بالتأخى فى الدين ، والتأخى حين الهجرة بين المهاجرين والأنصار حين كان المهاجرى يرث الأنصارى دون قرابته وذوى رحمه . ثم استثنى من ذلك الوصية ، فقال :

(إلا أن تفعلوا إلى أوابائكم معروفا) الأولياء هنا المؤمنون والمهاجرون والمعروف الوصية أى إلا أن توصوا لهؤلاء بوصية ، فهم أحق بها من القريب الوارث . ثم بين أن هذا الحكم هو الأصل فى الإرث ، وهو الحكم الثابت فى كتابه الذى لا يغير ولا يبدل ، فقال :

(كان ذلك فى الكتاب مسطورا) أى إن هذا الحكم ، وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض - حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الذى لا يبدل ولا يغير ، وإن كان قد شرع غيره فى وقت ما لمصلحة عارضة ، وحكمة بالغة ، وهو يعلم أنه سيفيره إلى ما هو جار فى قدره الأزل ، وقضائه التشريعى .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى
وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ
صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فيما سلف أحكاما شرعها لعباده ، وكان فيها أشياء مما كان
فى الجاهلية ، وأشياء مما كان فى الإسلام ، ثم أبطلت ونسخت - أتبع ذلك بذكر
ما فيه حث على التبليغ ، فذكر أخذ العهد على النبیین أن يبلغوا رسالات ربهم ،
ولا سيما أولو العزم منهم ، وهم الخمسة المذكورون فى الآية ، كما ذكر فى آية أخرى
سؤال الله أنبياءه عن تصديق أقوامهم له ، ليكون فى ذلك تبيكيت للمكذبين من
الكفار ، فقال : « يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ » .

الإيضاح

(و إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بْنِ
مَرْيَمَ) أى واذكر أيها الرسول العهد والميثاق الذى أخذه الله على أولى العزم الخمسة ،
وبقية الأنبياء ليقمين دينه ، ويبلغن رسالته ، ويتناصرن كما قال فى آية أخرى :
« وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ
مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ
إِحْرَارِي ؟ قَالُوا أَقْرَرْنَا . قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » .

(وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) بسؤالهم عما فعلوا حين الإرسال كما قال :
« وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ » .

وقد جرت العادة أن الملك إذا أرسل رسولا ، وأمره بشىء وقبله كان ذلك ميثاقا

عليه ، فإذا أعلمه بأنه سيسأله عما يقول ويفعل كان ذلك تغليظا للميثاق ، حتى لا يزيد ولا ينقص فى الرسالة .

ثم بين علة أخذ الميثاق على النبيين ، فقال :

(ليسأل الصادقين عن صدقهم) أى وأخذنا من هؤلاء الأنبياء ميثاقهم كي أسأل المرسلين عما أجابتهم به أمهم ، وما فعل أقوامهم فيما أبلغوهم عن ربهم من الرسالة .

(وأعدّ للكافرين عذابا ألياً) أى ليسأل الصادقين عن صدقهم ، وأعدّ لهم ثوابا عظيما ، ويسأل الكاذبين عن كذبهم ، وأعدّ لهم عذابا ألياً .

غزوة الأحزاب — وقعة الخندق

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُرمَا نِعْمَةً اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودُ
فَارِسَائِنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩)
إِذْ جَاءَوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ
الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ
وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ
يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ
يُيُوتُنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ
عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤)

وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْتُونَ الْأَذْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ
 مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا
 لَا تُنْتَمِعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ
 بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا
 وَلَا نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ ،
 هَلُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ
 الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ
 الْمَوْتِ ، فَإِذَا زَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ ، أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ
 أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩)
 يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ، وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ
 بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ ، يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا
 إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ
 يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ
 الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ،
 وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا
 اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣)
 لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا

خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنْزَلَ
الَّذِينَ ظَاهَرُواهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ
الرُّعْبَ ، فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْزَكَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدْيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْنُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)

شرح المفردات

المراد بالجنود هنا : الأحزاب ، وهم قریش يقودهم أبو سفيان ، وبنو أسد يقودهم
طلحة ، وخطفان يقودهم عيينة بن حصن ، وبنو عامر يقودهم عامر بن الطفيل ،
و بنو سقيم يقودهم أبو الأعور السلمي ، و بنو النضير من اليهود ، ورؤسائهم حيي بن
أخطب ، وأبناء أبي الحقيق ، و بنو قريظة من اليهود أيضا سيدهم كعب بن أسد ،
وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنبذه كعب بسعى حيي ، وكان
مجموع جيوش الأعداء عشرة آلاف أو نحو ذلك ، والجنود التي لم تروها : هي الملائكة
من فوقكم : أي من أعلى الوادي من جهة المشرق ، وكانوا بنى غطفان ، ومن أسفل
منكم : أي من أسفل الوادي من قبل المغرب ، وكانوا قریشا ومن شابعهم ، و بنى
كنانة ، وأهل تهامة ، زاعت الأبصار : أي انحرفت عن مستوى نظرها حيرة
ودهشة ، و بلغت القلوب الحناجر : يراد به فرغت فزعا شديدا ، ابتلى المؤمنون : أي
اختبروا وامتحنوا ، وزلزلوا زلزالا شديدا : أي اضطربوا اضطرابا شديدا من الفزع ،
وكثرة العدو ، والذين في قلوبهم مرض : قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه
عليهم لقرب عهدهم بالإسلام ، إلا غرورا : أي إلا وعد غرور للاحقيقة له ؛ يثرب :
من أسماء المدينة ، لامقام لكم : أي لا ينبغي لكم الإقامة هاهنا ، عورة : أي ذات
عورة لأنها خالية من الرجال ، ونخاف عليها سرق السراق ، والأقطار : واحداها قطر
وهو الناحية والجانب ، والفتنة : الردة ومقاتلة المؤمنين ، آتوها : أي أعطوها ،

وما تلبثوا بها : أى وما أقاموا بالمدينة ، يعصمكم : أى يمنعكم ، المعوقين : أى المشبطين
عن القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلم إلينا : أى أقبولوا إلينا ، والبأس :
الشدة ، والمراد به هنا الحرب والقتال ، أشحة : واحد هم شحيح أى بخيل بالنصرة
والمنفعة ، تدور أعينهم : أى تدبر أعينهم أحداقهم من شدة الخوف ، سلقوكم : أى
آدوكم بالكلام ، بالسنة حداد : أى السنة ذريعة سلطنة تفعل فعل الحديد ، أشحة على
الخير : أى بخلاء حريصين على مال الفنائم ، أحبط الله أعمالهم : أى أبطلها لإضرارهم
السفر ، لو أنهم بادون فى الأعراب : أى خارجون إلى العدو ، مقيمون بين أهله ،
أسوة : أى قدوة ، والمراد به المقتدى به ، قضى نجبه : أى فرغ من نذره ووفى بعهده ،
وصبر على الجهاد حتى استشهد كحمزة ، ومصعب بن عمير ، والغيظ : أشد الغضب ،
وكفى الله المؤمنين القتال : أى وقاهم شره ، عزيزاً : أى غالباً مستولياً على كل شيء ،
ظاهروهم : أى عاونوهم ، من أهل الكتاب : أى من بنى قريظة ، من صياصبيهم :
أى من حصونهم واحداً صيصية وهى كل ما يمتنع به ؛ قال الشاعر :

فأصبحت الثيران صرعى وأصبحت نساء تميم يبتدرن الصياصيا
وقذف : أى ألقى ، والرعب : الخوف الشديد .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله عباده بتقواه ، وعدم الخوف من سواه - ذكر هنا تحقيق ماسلف
فأبان سبحانه أنه أنعم على عباده المؤمنين ، إذ صرف عنهم أعداءهم وهزمهم حين تألبوا
عليهم عام الخندق .

وتفصيل هذا على ما قاله أرباب السير : إن نفرا من اليهود قدموا على قريش
فى شوال سنة خمس من الهجرة بمكة ، فدعواهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقالوا لهم : إن دينكم خير من دينه ، ثم جاءوا غطفان وقيسنا وعيلاً ، وحالفوا جميع
هؤلاء أن يكونوا معهم عليه ، فخرجت هذه القبائل ومعها قادتها وزعماءها .

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسيرهم أمر المسلمين بحفر خندق حول المدينة بإشارة سلمان الفارسي ، وعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وأحكموه ؛ وكان رسول الله يرتجز بكلمات ابن رواحة ، ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

وفي أثناء العمل برزت لهم صخرة بيضاء في بطن الخندق فكسرت حديدهم وشقت عليهم ، فاما علم بها صلى الله عليه وسلم أخذ المعول من سلمان وضربها به ضربة صدعها و برق منها برق أضاء ما بين لابتيها (جانبى المدينة) حتى كأنه مصباح في جوف بيت مظلم ؛ فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير ففتح وكبر المسلمون وهكذا مرة ثانية وثالثة فكانت تضىء وكان التكبير ؛ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ضربت ضربتى الأولى فبرق البرق الذى رأيتم فضاء لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ؛ ثم ضربت ضربتى الثانية ، فبرق البرق الذى رأيتم أضاء لى منها قصور قيصر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ؛ ثم ضربت الثالثة فبرق البرق الذى قد رأيتم أضاء لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، فأبشروا؛ فاستبشر المسلمون ، وقالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعده ؛ فقال المنافقون : ألا تعجبون ؟ يمثيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنه ينظر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، ومنها تفتح نكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لاستطيعون أن تبرزوا ، فنزل : (وإذ يقول المنافقون) الخ ، ونزل : (قل اللهم مالك الملك) الآية .

ولما اجتمع هؤلاء الأحزاب الذين حزبهم اليهود ، وأنوا إلى المدينة رأوا الخندق حائلا بينهم وبينها ، فقالوا : والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها ، ووقعت.

مصادمات بين القوم كراً وفرّاً ، فمن المشركين من كان يقتحم الخندق فيرمى بالحجارة ، ومنهم من كان يقتحمه بفرسه فيهلك .

ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر من غطفان أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلمه أنه أسلم وأن قومه لم يعموا بذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنما أنت فينا رجل واحد . فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة ، فأتى قرينة وقال لهم : لا تحاربوا مع قريش وغطفان إلا إذا أخذتم منهم رهناً من أشرفهم يكونون بأيديكم تقيّة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً ، لأنهم رجعوا وشتّموا حربته ، وإنكم وحدكم لا تقدرون عليه ، وذهب إلى قريش وإلى غطفان ، فقال لهم : إن اليهود يريدون أن يأخذوا منكم رهناً يدفعونها لمحمد ، فيضرب أعناقهم ، ويتحدون معه على قتالكم ، لأنهم ندموا على ما فعلوا من نقض العهد وتابوا ، وهذا هو الخرج الذى اتفقوا عليه . وحينئذ تحاذل اليهود والعرب ، ودبّ بينهم ديب الفشل . وما زاد في فشلهم أن بعث الله عليهم ريحا في ليلة شاتية شديدة البرد ، فجعلت تكفى صدورهم ، وتطرح آيتهم .

وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة يصلى على النل الذى عليه مسجد الفتح ، ثم يلتفت ويقول : هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ ففعل ذلك ثلاث مرات ، فلم يقم رجل واحد ، من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد ، فدعا حذيفة بن اليمان وقال : ألم تسمع كلامى منذ الليلة ؟ قال حذيفة : فقلت يا رسول الله منعنى أن أجيئك الضّر والقر ، قال : انطلق حتى تدخل في القوم ، فتسمع كلامهم وتأتينى بخبرهم . اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، حتى تردّه إلىّ ، انطلق ولا تحدث شيئا حتى تأتيني ، فانطلق حذيفة بسلاحه ، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده يقول : يا صريح المكروبين ، يا حبيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكربى ، فقد ترى حالى وحال أصحابي فنزل جبريل وقال : إن الله قد سمع دعوتك ، وكفاك هول عدوك ، فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم على

ركبتيه ، وبسط يديه ، وأرخى عينيه ، وهو يقول : شكرا شكرا كما رحمتني ورحمت
أصحابي ، وذهب حذيفة إلى القوم ، فسمع أباسفيان يقول : يا معشر قريش ، إنكم
والله ما أصبحتم بدار مُقام ، لقد هلك الكُراع والخفّ ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا
عنهم الذي نكروه ، ولقينا من هذه الريح ماترون ، فارتحلوا فإني مرتحل ، فلما رجع
أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضحك حتى بدت أنيابه في سواد الليل .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُفِّرَتْ عَنْكُمْ جُنُودُ فَارِسَ لَنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا) أى تذكروا أيها المؤمنون نعم الله التي أسبغها عليكم حين حوصرتكم
أيام الخندق وحين جاءكم جنود الأحزاب من قريش وغطفان ، ويهود بنى النضير
الذين كانوا أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى خيبر ، فأرسلنا عليهم
ريحاً باردة في ليلة باردة أحصرتهم ، وسفت التراب في وجوههم ، وأمر ملائكته ،
فقلعت الأوتاد ، وقطعت الأطناب ، وأطفأت النيران ، وأكفت القدور ، وماجت
الخليل بعضها في بعض ، وقذف الرعب في قلوب الأعداء ، حتى قال طليحة بن خويلد
الأسدي : إن محمداً قد بدأكم بالسحر ، فالنجاء النجاء ، فانهزموا من غير قتال .

قال حذيفة بن اليمان وقد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتى بخبر القوم :
خرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد ، وإذا رجل
أدهم ضخم (أبو سفيان) يقول : الرحيل الرحيل لأمقام لكم ، وإذا الرجل في عسكرهم
ما يجاوز عسكرهم شبرا ، فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم ، والريح
تضربهم ؛ ثم رجعت نحو النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فلما صرت في منتصف الطريق
أونحو ذلك إذا أنا بنحو عشرين فارساً معتمئين قالوا : أخبر صاحبك أن الله قد
كفأك القوم .

والخلاصة : إنه تعالى يمتنّ على عباده المؤمنين بذكر النعم التي أنعم بها عليهم ،
 إذ صرف عنهم أعداءهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا عام الخندق .
 (وكان الله بما تعملون بصيرا) أى وكان الله عليا بجميع أعمالكم من حفركم
 للخندق ، وترتيب وسائل الحرب لإعلاء كلمة الله ، ومقاساتكم من الجهد والشدائد
 ما لاحصر له ، بصيرا بها لا يخفى عليه شئ منها ، وهو يجازيكم عليها « وَلَا يَظْلِمُ
 رَبُّكَ أَحَدًا » .

ثم زاد الأمر تفصيلا وبيانا ، فقال :

(إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) أى حين جاءتكم الأحزاب من أعلى
 الوادى من جهة المشرق ، وكانوا من غطفان ، ومن تابعهم من أهل نجد ، ومن بنى
 قريظة والنضير من اليهود ، ومن أسفله من قبل المغرب ، وكانوا من قريش ،
 ومن شايعهم من الأحابيش ، وبنى كنانة وأهل تهامة .
 (وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا) أى وحين
 مالت الأبصار عن سنتها ، وانحرفت عن مستوى نظرها حيرة ودهشة ، وخاف الناس
 خوفا شديدا ، وفرزعوا فرعا عظيما ، وظنوا مختلف الظنون ، فمنهم مؤمن مخلص يستنجز
 الله وعده فى إعلاء دينه ونصرة نبيه ، ويقول : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، ومنهم منافق
 وفى قلبه مرض يظن أن محمدا وأصحابه سيُستأصلون . ويستولى المشركون على المدينة ،
 وتعود الجاهلية سيرتها الأولى ، إلى نحو ذلك من ظنون لاحصر لها تجول فى قلوب
 المؤمنين والمنافقين ، على قدر ما يكون القلب عامرا بالإخلاص مكتوبا له السعادة
 أو متشككا فى اعتقاده ليست له عزيمة صادقة .

ثم ذكر أن هذه الشدائد محست المؤمنين ، وأظهرت المنافقين .

(هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلا شديدا) أى حين ذاك اختبر الله المؤمنين
 ومحصهم أشد التحصيل ، فظهر المخلص من المنافق ، والراسخ الإيمان من المتزلزل ،
 واضطربوا اضطرابا شديدا من الفرع وكثرة العدو .

(وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا)
 أى وحين قال المنافقون كعُتِبَ بن قُشَيْر ، والذين في قلوبهم ضعف في الإيمان لقرب
 عهدهم بالإسلام : ما وعدنا الله ورسوله من الظفر والنصر على العدو إلا وعدا باطلا
 يغرنّا به ويوقننا فيما لا طاعة لنا به ، ويسلخنا عن دين آبائنا ، ويقول : إن هذا الدين
 سيظهر على الدين كله ، وإنه سيفتح لنا فارس والروم ، وهانحن أولاء قد حُصِرنا
 ها هنا حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته .

(وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا) أى وحين قالت
 جماعة من المنافقين كعبد الله بن أبى وأصحابه : يا أهل المدينة ليس هذا المقام بمقام لكم
 فارجعوا إلى منازلكم ليكون ذلك أسلم لكم من القتل ، وقد يكون المعنى : لا مقام لكم
 في دين محمد فارجعوا إلى ما كنتم عليه من الشرك وأسلموا محمدا إلى أعدائه .

(ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة) أى ويطلب
 جماعة منهم من النبي صلى الله عليه وسلم الرجوع إلى بيوتهم وتركهم للقتال ، وهم
 بنو حارثة ، معتذرين بمختلف العاذير كقولهم : إن بيوتنا مما يلي العدو ذليلة الحيطان
 يخاف عليها من السراق ، والحقيقة أنهم كاذبون فيما يقولون ، وهم مضمرون
 غير ذلك .

ثم بين السبب الحقيقي لهذه المقالة ، فقال :

(إن يريدون إلا فرارا) أى وما يريدون بالاستئذان إلا الفرار من القتال
 والهرب من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم مساعدة المؤمنين .
 ثم بين وهن الدين وضعفه في قلوبهم إذ ذلك ، وأنه معلق بخيط دقيق ينقطع
 بأدنى هزة ، فقال :

(ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآنها وما تابشوا بها إلا يسيرا) أى
 ولو دخل عليهم الأحزاب من جوانب بيوتهم ، ثم طلبوا إليهم أن يرتدوا عن دينهم
 ويرجعوا إلى شركهم برههم - لفعلوا ذلك مسرعين من شدة الهلع والجزع .

وفى هذا إيماء إلى أن الإيمان لاقرار له فى نفوسهم ، ولا أثر له فى قلوبهم ، فهو لا يستطيع مقابلة الصعاب ، ولا مقاومة الشدائد ، فلا تعجب لاستئذانهم وطلبهم الهرب من ميدان القتال .

والخلاصة : إن شدة الخوف والهلع الذى تمكن فى قلوبهم مع خبث طويبتهم ، وإضمارهم النفاق - يحملهم على الإشراف بالله والرجوع إلى دينهم عند أدنى صدمة من العدو تحصل لهم ، فإيمانهم طلاء ظاهرى لا أثر له فى نفوسهم بحال ، فلا عجب إذا هم تسلوا وإذا ، وبلغ الخوف من نفوسهم كل مبلغ .

ثم بين أن لهم سابقة عهد بالفرار وخوف اللقاء من الكفاة ، فقال :

(ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار) أى ولقد كان هؤلاء المستأذنين وهم بنو حارثة قد هربوا يوم أحد وفرّوا من لقاء عدوهم ، ثم تابوا وعاهدوا الله ألا يعودوا إلى مثلها وألا يفتكروا على أعقابهم حين قتالهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

ثم بين ما للعهد من حرمة ، فقال :

(وكان عهد الله مسئولا) أى وعهد الله يسأل عن الوفاء به يوم القيامة ويحازى عليه .

ثم أمر الله رسوله أن يقول لهم : إن فراركم لا يؤخر آجالكم ، ولا يطيّل أعماركم ، فقال :

(قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل) أى قل هؤلاء المستأذنين الفارين من قتال العدو ومنازلته فى الميدان : لن ينفعكم الهرب ولا يدفع عنكم ما أتركم فى الأزل من موت أحدكم حتف أنفه ، أو قتله بسيف ونحوه ، فإن المقدركائن لا محالة والأجل إن حضر لم يتأخر بالفرار ، وكان علىّ يقول عند اللقاء : دهم الأمر ، وتوقّد الجمر .

أَيَّ يَوْمٍ مِنَ الْمَوْتِ أَفَرَّ يَوْمَ لَا يُقَدَّرُ أَمْ يَوْمَ قَدِرَ
يَوْمَ لَا يُقَدَّرُ لَا أَرْهَبُهُ وَمَنِ الْمَقْدُورُ لَا يُنْجِي الْحَذَرُ

(وَإِذَا لَا تَمْتَنُّونَ إِلَّا قَلِيلًا) أَي وَإِنْ نَفَعَكُمْ الْفَرَارُ بِأَنْ دَفَعَ عَنْكُمْ الْمَوْتَ فَتَمَتُّعْتُمْ لَمْ
يَكُنْ ذَلِكَ التَّمَتُّعُ إِلَّا قَلِيلًا ، فَإِنَّ أَيَّامَ الْحَيَاةِ وَإِنْ طَالَتْ قَصِيرَةً ، فَعَمْرُ تَأْكُلُهُ الدَّقَائِقُ
قَلِيلٌ وَإِنْ كَثُرَ ، كَمَا قَالَ أَحْمَدُ شَوْقُ بَيْتٍ :

دَقَاتِ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقُ وَتَوَانِي

وَمَا كَانُوا رُبَّمَا يَقُولُونَ : بَلْ يَنْفَعُنَا لِأَنَّا طَالَمَا رَأَيْنَا مِنْ هَرَبِ فَسَلَمٍ ، وَمَنْ ثَبِتَ
فَاضْطَلِمَ - أَمَرَهُ اللَّهُ بِالْجَوَابِ عَنْ هَذَا ، فَقَالَ :

(قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً) أَي
قُلْ لَمْ : لَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْنَعَ عَنْكُمْ شَرًّا مِنْ قَتْلِ أَوْ بَلَاءٍ قَدَرَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، أَوْ يُؤْتِيَكُمْ
خَيْرًا إِنْ لَمْ يَكُنْ أَرَادَهُ اللَّهُ .

وَالْخِلَاصَةُ : هَلْ احْتَرَزْتُمْ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ عَنْ سُوءِ فَنَفَعَكُمْ الْإِحْتِرَازُ ، أَوْ اجْتَهَدَ
غَيْرَكُمْ فِي مَنَعِ الْخَيْرِ عَنْكُمْ فَتَمَّ لَهُ مَا أَرَادَ ؟ .

وَأَجْمَالُ الْقَوْلِ : إِنْ النِّفْعُ وَالضَّرُّ بِيَدِهِ سُبْحَانَهُ ، وَلَيْسَ لغيرِهِ فِي ذَلِكَ تَصْرِيفٌ
وَلَا تَبْدِيلٌ .

ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا بِقَوْلِهِ :

(وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) أَي وَلَا يَجِدُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ وَلِيًّا
يَنْفَعُهُمْ غَيْرَ اللَّهِ وَلَا نَصِيرًا يَدْفَعُ السُّوءَ عَنْهُمْ .

وَبَعْدَ أَنْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَقَالَةِ الْمُنَافِقِينَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ
وَأَمَرَهُ بِوَعظِهِمْ - حَذَرَهُمْ بِدَوَامِ عِلْمِهِ بِمَنْ يَخُونُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِقَوْلِهِ :

(قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا) أَي إِنْ رَبُّكَ أَيُّهَا
الرَّسُولُ لَيَعْلَمُ حَقَّ الْعِلْمِ مَنْ يَتَّبِعُونَ النَّاسَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَصُدُّونَهُمْ

عنه ، وعن شهود الحرب معه نفاقا منهم وتحذيرا عن الإسلام ، ويعلم الذين يقولون لأصحابهم وخطائهم من أهل المدينة : تعالوا إلى مانحن فيه من الظلال والثمار ، ودعوا محمدا فلا تشهدوا معه مشهدا ، فإننا نخاف عليكم الهلاك .

قال قتادة : كان المنافقون يقولون لإخوانهم من ساكنى المدينة من الأنصار : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس (يريدون أنهم قليلو العدد) ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، فدعوه فإنه هالك .

(ولا يأتون البأس إلا قليلا) أى ولا يأتون الحرب إلا زمنا قليلا ، فقد كانوا لا يأتون المعسكر إلا ليراهم المخلصون ، فإذا غفلوا عنهم تسللوا وإذا عادوا إلى بيوتهم . ثم ذكر بعض معايبهم من البخل والخوف والفخر الكاذب ، فقال :
(١) (أشح عليكم) أى بخلاء عليكم بالنفقة والنصرة ، فهم لا يودون مساعدتكم لأنفسهم ولا لجمال .

(٢) (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت) أى فإذا بدأ الخوف بكر الشجعان وفرهم فى ميدان القتال - رأيتهم ينظرون إليك ، وقد دارت أعينهم فى رهوسهم فرقا وخوفا كدوران عين الذى قرب من الموت وغشيتة أسبابه ، فإنه إذ ذاك يدعب لبه ، ويشخص بصره ، فلا يتحرك طرفه .

(٣) (فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد) أى فإذا كان الأمن تكلموا فصيح الكلام ، ونفروا بما لهم من المقامات المشهودة فى النجدة والشجاعة ، وهم فى ذلك كاذبون .

قال قتادة : أما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوؤه مقاسمة ، يقولون : أعطونا أعطونا قد شهدنا معكم ، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق . ثم بين ما دعاهم إلى بسط ألسنتهم فيهم ، فقال :

(أشحة على الخير) أى هم بخلاء حريصون على الغنائم إذا ظفر بها المؤمنون ، لا يريدون أن يفوتهم شيء مما وصل إلى أيديهم .

والخلاصة : إنهم حين البأس جبناء ، وحين الغنيمة أشحاء .

أفى السلم أعيارٌ جفاء وغلظة وفى الحرب أمثال النساء العواتك
وبعد أن وصفهم بما وصفهم به من ذىء الصفات - بين مادعاهم إليها ، وهو قلة
ثقتهم بالله لعدم تمكن الوازع النفسى فى قلوبهم ، فقال :

(أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم) أى هؤلاء الذين بسطت أوصافهم لم يصدقوا
الله ورسوله ، ولم يخلصوا له العمل ، لأنهم أهل نفاق ، فأبطل الله أعمالهم ، وأذهب
أجورها ، وجعلها هباء منثورا .

(وكان ذلك على الله يسيرا) أى وكان ذلك الإحباط هينا على الله لا يبالى به ،
إذ هم قوم فعلوا ما يستوجبه ويستدعيه ، فافتضت حكمته أن يعاملهم بما يقتضيه عدله ،
وتدل عليه حكمته .

ثم أبان مقدار الجبن والهلع الذى لحق بهم ، فقال :

(يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) أى هم من شدة الهلع والخوف ، عظيم الدهشة
والخيرة لا يزالون يظنون أن الأحزاب من غطفان وقريش لم يرحلوا ، وقد هزمهم الله
ورحلوا ، وتفرقوا فى كل وادٍ .

وإجمال القول : إنهم لما لم يقاتلوا لجبنهم ، وضعف إيمانهم ، فكأنهم غائبون ،
فظنوا أن الأحزاب لم يرحلوا ، وقد كانوا راحلين منهزمين لا يلبون على شيء .

(وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم)
أى وإن يأت الأحزاب ويعودوا مرة أخرى تمنوا أن لو كانوا مقيمين فى البادية بعيدين
عن المدينة ، حتى لا ينالهم أذى ولا مكروه ، ويكتفون بأن يسألوا عن أخباركم كل قادم
من جانب المدينة ، وفى هذا كفاية لديهم لجبنهم ، وخور عزائمهم .

(ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا) أى ولو كان هؤلاء المنافقون فيكم فى السكرة

السابقة ، ولم يرجعوا إلى المدينة ، وكان القتال قتال جلابد وكرّ وفرّ ، وطعن وضرب ، ومحاربة بالسيوف ، ومبارزة فى الصفوف - ما قاتلوا إلا قتالا يسيرا رياء وخوفا من العار ، لا قتالا يحتسبون فيه الثواب من الله وحسن الأجر .

وبعد أن فصل أحوالهم ، وشرح نذاتهم ، وعظيم جبنهم - عاتبهم أشد العتب ، وأبان لهم أنه قد كان لهم برسول الله معتبر لو اعتبروا . وأسوة حسنة لو أرادوا التأسى ، فقال :

(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) أى إن المثل العالية ، والقذوة الحسنة ماثلة أمامكم لو شئتم ، فتحذون الرسول فى أعماله ، وتسировون على نهجه لو كنتم تبتغون ثواب الله ، وتخافون عقابه إذا أزفت الآزفة ، وعدم النصير والمعين ، إلا العمل الصالح ، وكنتم تذكرون الله ذكرا كثيرا ، فإن ذكره يؤدى إلى طاعته ، ويحقق الاتساء برسوله .

وخلاصة ذلك : هلا اقتديتم بالرسول وتأسيتم بشماله .

ولما ذكر سبحانه حال المنافقين - ذكر حال المؤمنين حين لقاء الأحزاب ، فقال :
(ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما) أى ولما أبصر المؤمنون الصادقون المخلصون الله فى القول والعمل - الأحزاب الذين أدهشت رؤيتهم العقول ، وتبلبت لها الأفكار ، واضطربت الأفئدة - قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار الذى يعقبه النصر فى نحو قوله : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَهَذَا بِآيَاتِنَا كَذِبٌ » مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » ، وقوله : « أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ » وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم ، والعاقبة لكم عليهم » وقوله : « إنهم سائرون إليكم تسعا أو عشرة » أى فى آخر تسع ليال أو عشر من حين الإخبار .

وصدق الله ورسوله في النصرة والثواب كما صدق الله ورسوله في البلاء والاختبار وما زادهم ذلك إلا صبرا على البلاء ، وتسليما للقضاء ، وتصديقا بتحقيق ما كان الله ورسوله قد وعدهم .

ثم وصف سبحانه بعض الكملة من المؤمنين الذين صدقوا عند اللقاء ، واحتملوا البأساء والضراء ، فقال :

(من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) أى ومن المؤمنين بالله والمصدقين برسوله رجال أوفوا بما عاهدوا الله عليه من الصبر في الأواء وحين البأساء ، فاستشهد بعض يوم بدر ، وبعض يوم أحد ، وبعض في غير هذه المواطن ، ومنهم من ينتظر قضاءه والفراغ منه كما قضى من مضى منهم على الوفاء لله بهده ، وما غيره وما بدلوه .

أخرج الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي في جملة آخرين عن أنس قال : « غاب عمى أنس بن النضر عن بدر ، فشق عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ، إني أراي الله تعالى مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعد ليبرين الله تعالى ما أصنع ، فشهد يوم أحد ، فاستقبله سعد بن معاذ رضى الله عنه ، فقال : يا أبا عمرو إلى أين ؟ قال : وإها لريح الجنة أجدها دون أحد ، فقاتل حتى قتل ، فوُجد في جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ، ونزلت هذه الآية : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) الخ .

وروى صاحب الكشاف أن رجلا من الصحابة نذروا أنهم إذا لقوا حربا مع رسول الله ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ، وهم عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد ، وحزمة ومُصعب بن عمير ، وجمع غيرهم .

ثم بين العلة في هذا الابتلاء والتحريض ، فقال :

(ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عنهم)

أى إنه سبحانه إنما يختبر عباده بالخوف والزلال ليميز الخبيث من الطيب ، ويظهر أمر كل منهما جليا واضحا كما قال : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » وقال : « مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ » ثم يثيب أهل الصدق منهم بصدقهم بما عاهدوا الله عليه ، ووفائهم له به ، ويعذب المنافقين الناقضين لعهدده ، الخالفين لأوامره ، إذا استمروا على نفاقهم حتى يلقوه ، فإن تابوا ونزعوا عن نفاقهم ، وعملوا صالح الأعمال غفر لهم ربهم ما أسلفوا من السيئات ، واجتروا من الآثام والذنوب .

ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هى الغالبة قال :

(إن الله كان غفورا رحيا) أى إنه تعالى من شأنه الستر على ذنوب التائبين والرحمة بهم ، فلا يعاقبهم بعد التوبة ، وفى هذا حث عليها فى كل حين ، وبيان نفعا للتائبين .

ثم رجع يحكى بقية القصص وفصل ذلك تكميلا للنعمة التى أشار إليها إجمالا بقوله : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجَنُودًا لَمْ تَرَوْهَا » ووسط بينهما بإيضاح ما نزل بهم من الطامة التى تحير العقول والأفهام ، والداهية التى زلت فيها الأقدام وما صدر من الفريقين المؤمنين وأهل الكفر والنفاق من الأحوال والأقوال ، لإظهار عظمة النعمة وإبانة جليل خطرهما ، ومجيئها حين اشتداد الحاجة إليها فقال :

(ورد الله الذين كفروا بغيتهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال) أى فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وردده الذين كفروا بالله ورسوله من قریش وغطفان بغمهم بفوت ما أملوا من الظفر وخبيثتهم فيما كانوا طمعوا فيه من القلبة والنصر على محمد وصحبه ، إذ لم يصيبوا مالا ولا إسارا ولم يحتج المؤمنون إلى منازلهم ومبارزتهم لإجلالهم عن بلادهم ، بل كفى الله المؤمنين القتال ، ونصر عبده ، وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده . فلاشئ بعده .

روى الشيخان من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شىء بعده » .

وروى أيضا عن عبد الله بن أوفى قال : « دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأحزاب فقال : اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم » .

وروى محمد بن إسحاق أنه لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزوم » وقد تحقق هذا فلم تغزهم قريش بعد ذلك ، بل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزوم حتى فتح الله تعالى مكة .

(وكان الله قويا عزيزا) أى وكان الله عزيزا بحوله وقوته فردم خائبين لم ينالوا خيرا .

ولما قص أمر الأحزاب وذكر ما انتهى إليه أمرهم ذكر حال من عاونوهم من اليهود فقال :

(وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم) أى وأنزل الله يهود بنى قريظة الذين عاونوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم بعد أن نقضوا العهد بسفارة حبي بن أخطب النصيرى ، إذ لم يزل برعيمهم كعب ابن أسد حتى نقض العهد وكان مما قاله له : جئت بك بعز الدهر ، أنتيتك بقريش وأحابيشها وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمدا وأصحابه ، فقال له كعب : بل والله جئتني بذل الدهر ، ويحك يا حبي إنك مشئوم فدعنا منك ، فلم يزل يقتل له فى الذروة والغارب (يخادعه) حتى أجابه ، واشترط له حبي أن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شىء أن يدخل معهم فى الحصن فيكون أسوتهم .

ولما أيد الله المؤمنين وكبت أعداءهم وردم خائبين ورجع إلى المدينة ووضع الناس

السلح - أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن انهض إلى بنى قريظة من فورك ، فأمر الناس بالسير إليهم ، وكانوا على أميال من المدينة بعد صلاة الظهر وقال صلى الله عليه وسلم « لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة » فسار الناس فأدركتهم الصلاة ، فصلى بعض فى الطريق ، وقال آخرون : لانصليها إلا فى بنى قريظة فلم يعنف واحدا من الفريقين .

(وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقاً) أى وألقى الرعب فى قلوبهم حين نازلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة ، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس ؛ لأنهم كانوا حلفاءهم ، فأحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : إن هؤلاء نزلوا على حكمك فأحكم فيهم بما شئت ، فقال رضى الله عنه : وحكمى نافذ فيهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم » فقال إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم وأموالهم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله » ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأخذيد فخذت فى الأرض وجيء بهم مكثوفى الأيدى فضربت أعناقهم وكانوا ما بين سبعمائة وثمانمائة ، وسبى من لم ينبت منهم مع النساء ، وسبى أموالهم .
والخلاصة — إنه قذف الرعب فى قلوبهم حتى أسلموا أنفسهم للقتل وأهلهم وأموالهم للأسر .

(وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها) أى وأورثكم مزارعهم ونخيلهم ومنازلهم وأموالهم التى ادخروها وماشيتهم من كل ثاغية وراغية ، وأرضا لم تطئوها وهى الأرضون التى سيفتحها المسلمون حتى يوم القيامة ، فإله عكرمة واختاره أبو حيان .

(وكان الله على كل شىء قديراً) أى وكان الله قديراً على أن يورثكم ذلك ، وعلى أن ينصرمكم عليهم ، إذ لا يتمذر عليه شىء أراد ، ولا يمتنع عليه فعل شىء حاول فعله .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرِيتَهَا
فَتَعَالَيْن أُمْتِعْتِكُنَّ وَأَسَرَّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)
يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ
ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)

شرح المفردات

زينة الدنيا : زخرفها ونعيمها ، فتعالين : أى أقبلين باختياركن واخترن أحد
الأمرين ، أمتعكن : أى أعطىكن المتعة ، وهى قيص وغطاء للرأس وملحفة - ملاءة -
على حسب السعة والإقتار ، وأسرحكن : أى أطلقكن ، سراحا جميلا : أى طلاقا
من غير ضرار ولا محاصرة ولا مشاجرة ، بفاحشة : أى فعلة قبيحة كنشوز وسوء خلق
واختيار الحياة الدنيا وزيتها على الله ورسوله ، مبينة : أى ظاهرة القبح من قولهم :
بين كذا بمعنى ظهر وتبين ، ضعفين : أى ضعف عذاب غيرهن أى مثليه ، يسيرا :
أى هينا لا يجتنعه عنه كونهن نساء النبي ، بل هذا سبب له .

المعنى الجملى

بعد أن نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فرد عنه الأحزاب وفتح عليه قريظة
والنضير ظن أزواجه رضى الله عنهن أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقدمن
حوله وقان يارسول الله : بنات كسرى وقيصر فى الحلى والحلل ، والإماء والخول
- الخدم والحشم - ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق ، وآلمن قلبه الشريف
بمطالبهن من توسعة الحال ومعاملتهم معاملة نساء الملوك وأبناء الدنيا من التمتع بزخرفها
من المأكول والمشرب ونحو ذلك فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل فى شأنهن .

روى أحمد عن جابر رضى الله عنه قال : « أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والناس بابه جلوس ، والنبي صلى الله عليه وسلم جالس فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فدخلوا ، والنبي صلى الله عليه وسلم جالس وحوله نساؤه وهو ساكت ، فقال عمر لأكلنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لعله يضحك ، قال : يا رسول الله ! لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتنى النفقة آتفاً فوجأت عنقها ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال « هنّ حولى يسألننى النفقة » فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى حفصة ، كلاهما يقول : تسألان النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ، فهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلن : والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، وأنزل الله عز وجل الخييار ، فبدأ بعائشة رضى الله عنها فقال لها إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك ، قالت وما هو ؟ فقلنا عليها : « يأيها النبي قل لأزواجك » الآية . قالت عائشة رضى الله عنها : أفيك أستأمر أبوى ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نساك ما اخترت ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى لم يبعثنى معنفاً ولكن بعثنى معلماً ميسراً ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها » رواه مسلم والنسائى .

ثم وعظهن بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة وخصهن بأحكام يحذر بمثلهن أن يستمسكن بها لما لهن من مركز ممتاز بين نساء المسلمين ، لأنهن أمهات المؤمنين وموضع التبجلة والكرامة ، إلى أنهن فى بيت صاحب الدعوة الإسلامية ، ومنه انبعث نور الهدى والطهر والعفاف ، فأجدر بهن أن يكنَّ المثل العليا فى ذلك ، ويكون قدوة يأتسى بهن نساء المؤمنين جميعاً ، وبإياها منقبة أوتيت لهن دون سعى ولا إيجاف منهن ، بل هى منحة أكرمهن الله بها ، فله الحمد فى الآخرة والأولى .

الإيضاح

(يأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنن وأسرحنن سراحا جميلا) أي يأيها الرسول قل لأزواجك: اخترن لأنفسكن إحدى خلتين: أولاها أن تكن ممن يحببن لذات الدنيا ونعيمها والتمتع بزخرفها فليس لكن عندى مقام، إذ ليس عندى شيء منها، فأقبلن على أعطيكن ما أوجب الله على الرجال للنساء من المتعة عند فراقهم إياهن بالطلاق، تطيباً لخاطرهن وتعويضا لهن عما لحقهن من ضرر بالطلاق، وهى كسوة تختلف على حسب الغنى والفقر واليسار والإقتار كما قال تعالى: «وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْقَتْرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ» ثم أسرحكن وأطلقكن على ما أذن الله به وأدب به عباده بقوله: «إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ» وكان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ تسع نسوة: خمس من قریش: عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضى الله عنهن؛ وأربع من غير القرشيات: زينب بنت جحش الأسدية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وصفية بنت حيى بن أخطب النضيرية، وجويزية بنت الحارث المصطلقية.

وحين نزلت هذه الآية عرض عليهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وبدأ بعائشة وكانت أحب أهله إليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاخترت الله ورسوله والدار الآخرة، وفرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تابعها بقية نساؤه.

ثم ذكر ثانية الخلتين فقال:

(وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما) أي وإن كنتن تردن رضا الله ورضا رسوله وثواب الدار الآخرة فأطعنهما فإن الله أعد للمحسنات منكن فى أعمالهن القولية والفعلية ثوابا عظيما تستحقن الدنيا وزينتها دونه، كفاء إحسانهن.

والخلاصة — أثنين بين أحد أمرين : الإقامة معه والرضا بما قسم الله لكن العمل لطاعة الله ، وأن يتمتعن ويفارقكن إن لم ترضين بذلك .

وبعد أن خيرهن واخترن الله ورسوله — أنبع ذلك بعظمتن وتهديدهن إذا هن فعلن ما يسوء النبي صلى الله عليه وسلم وأوعدهن بمضاعفة العذاب فقال :

(يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا) أى من يعص منكن الرسول صلى الله عليه وسلم ويطلب ما يشق عليه ويضيق به ذرعا ويقتر لأجله — يضاعف لها العذاب يوم القيامة ضعفين ، أى تعذب ضعفى عذاب غيرها ، لأن قبح المعصية منهن أشد ، ومن ثم كان ذم العقلاء للعالم العاصى أشد منه للجاهل العاصى . وكان ذلك سهلا يسيرا على الله الذى لا يحابى أحداً لأجل أحد ، إذ كونهن نساء رسوله ليس بمنغن عنهن شيئا ، بل هو سبب لمضاعفة العذاب .

روى أن رجلا قال لزين العابدين رضى الله عنه : إنكم أهل بيت مغفور لكم ، فغضب وقال : نحن أخرى أن يجرى فينا ما أجرى الله فى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من أن نكون كما قلت ، إنا نرى لحسننا ضعفين من الأجر ، ولمسيئتنا ضعفين من العذاب وقرأ هذه الآية والتى بعدها .

وإلى هنا تم ما أردنا من تفسير هذا الجزء من كلام ربنا القديم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وكان الفراغ من مسودته صبيحة يوم الثلاثاء لسبع بقين من جمادى الآخرة من سنة أربع وستين وثلثمائة وألف من الهجرة النبوية بجلوان من أرباض القاهرة كورة الديار المصرية .

فهرست

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٥	جدال المشركين بانغلظة ، وجدال أهل الكتاب بالحسنى إلا الذين جحدوا وجه الحق ولم يقبلوا النصيح .
٥	في الحديث « لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم » .
٦	الحكمة في كون الرسول أميا .
٦	لا يكذب بالقرآن إلا من يستر الحق بالباطل .
٧	في الحديث « مامن نبي إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر » .
٨	طلب المشركون من النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بمعجزة محسوسة .
١٠	أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين كفى بالله بيني وبينكم شهيدا .
١٢	استعجال المشركين لنزول العذاب .
١٢	بيان جهاهم في هذا الاستعجال .
١٣	الأمر بالهجرة عند خوف الفتنة في الدين .
١٥	الموت في كل حين ينشد الكفنا .
١٥	جزاء المؤمنين الصالحين الصابرين المتوكلين .
١٧	المشركون لا ينكرون أن الله خالق السموات والأرض .
١٧	سعة الرزق وضيقه على حسب السنن التي وضعت في الكون .
١٩	الدنيا لعب ولهو ، والحياة الحققة هي دار الآخرة .

المبحث	الصفحة
كان المشركون إذا اشتد بهم الخوف دعوا الله ، وإذا أمنوا كفروا به .	٢١
معرفة الله فى فطرة كل إنسان .	٢١
الامتنان على قرش بسكنى حرم الله .	٢٢
مشوى الكافرين جهنم وبئس القرار .	٢٣
الذين اهتدوا يزيدهم الله هدى .	٢٣
الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك .	٢٤
خلاصة ماتضمنته سورة العنكبوت .	٢٥
العلة بين سورتي العنكبوت والروم .	٢٦
فرح المشركين بغلبة فارس للروم .	٢٧
الخطر الذى قدّمه أبو بكر لمن ناحبه .	٢٧
الحروف المقطعة فى أوائل السور .	٢٨
غلبة الروم لفارس كما وعد الله ، وفرح المؤمنين بذلك .	٢٨
الكافرون غافلون عن الآخرة .	٢٩
الأدلة متظاهرة فى الأنفس والآفاق على وحدانية الله .	٣٠
يوم تقوم الساعة يتفرق الناس ، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير .	٣٢
ماوصل إلى الجنة ويبعد عن النار .	٣٤
صفات الإله المستحق للثناء والتقديس .	٣٦
الأدلة على البعث والإعادة فى خلق الإنسان .	٣٧
الأدلة فى الأكوام المشاهدة والعوالم المختلفة .	٣٩
فى الحديث « كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك » الخ .	٤٢
ضرب الأمثال على الوحدانية .	٤٣

البحث	الصفحة
أمره صلى الله عليه وسلم بعدم المبالاة بأمر المشركين وإقامة وجهه لهذا الدين القيم .	٤٥
العقل الإنسانى كصحيفة بيضاء قابلة لكل نقش .	٤٦
فى الحديث « اعبد الله كأنك تراه » الخ .	٤٧
اختلف أهل الأديان فرقا وشيعا .	٤٧
أمره صلى الله عليه وسلم بالإففاق على ذوى القربى والفقراء والمساكين للتكافل بين الأسرة الخاصة والعامة .	٥١
تهديد المشركين بالنظر إلى أن من كان قبلهم كانت عاقبتهم النكال والوبال .	٥٤
الأدلة على وجود الخالق ووحدانيته .	٥٨
البرهان على البعث والنشور .	٦٠
من الأدلة على وجود الخالق تنقل الإنسان فى أطوار مختلفة .	٦٥
يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة .	٦٦
يوم القيامة لا ينفع الظالمين معاذيرهم عما فعلوا .	٦٧
الرسول أدى واجبه ومن خالفه فهو معاند .	٦٨
أمره صلى الله عليه وسلم بتلقى المكاره بصدر رحب وسعة حلم .	٦٩
خلاصة ما احتوت عليه سورة الروم من الموضوعات السكرية .	٧٠
المناسبة بين سورتي الروم ولقمان .	٧١
القرآن هدى ورحمة للمحسنين .	٧٢
ما كان يفعله النضر بن الحارث عند سماع القرآن .	٧٣
آراء العلماء فى سماع الغناء .	٧٤

الصفحة	المبحث
٧٥	جواز استعمال الطبل والدف في إعلان النكاح .
٧٧	الاستدلال على وحدانية الله .
٧٨	حكمة لقمان .
٧٩	عظة لقمان لابنه .
٨٢	وصيته سبحانه بحسن معاملة الوالدين .
٨٢	تأكيد الوصية بالأم خاصة .
٨٣	حديث سعد بن أبي وقاص مع أمه .
٨٤	وصية لقمان لابنه بإقامة الصلاة .
٨٥	تحذيره لابنه من تصغير الخلد مرحا .
٨٦	الأمر بغض الصوت .
٨٩	تقليد المشركين للآباء والأجداد .
٩٠	حال المستسلم المنفوض أمره إلى الله .
٩٢	المشركون يقولون بأن خالق السموات والأرض هو الله .
٩٤	عظمة الله لا يحيط بها أحد .
٩٧	الدلائل الأرضية على وحدانية الله سبحانه .
٩٨	الأمر بتقوى الله وخشيته خوفا من ذلك اليوم الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون .
٩٩	التحذير من غرور الدنيا والشیطان .
١٠٠	خمس لا يعلمهن إلا الله .
١٠١	مجل سورة لقمان .

الصفحة	المبحث
١٠٢	وجه اتصال السجدة بلقمان .
١٠٤	الأيام الستة التى خلق الله فيها العالم .
١٠٥	ماذا يراد باليوم الذى هو كآلف سنة ؟ .
١٠٥	أطوار خلق الإنسان .
١٠٦	استبعاد المشركين للبعث وأسباب ذلك .
١٠٨	حال المشركين حين معاينة العذاب .
١١٠	علامات أهل الإيمان .
١١٥	مآل المؤمن والكافر .
١١٦	انتقام الله من المجرمين .
١١٨	أدلة التوحيد .
١٢٠	استبعاد المشركين حصول النصر للنبي صلى الله عليه وسلم .
١٢٢	مجل ما اشتملت عليه سورة السجدة .
١٢٣	سورة الأحزاب .
١٢٤	أمر الله النبي بيقوى الله ونهيه عن طاعة الكافرين والمذاققين .
١٢٥	أمر الله النبي بالتوكل عليه وتفويض الأمور إليه وحده .
١٢٦	لا يجتمع خوف من الله وخوف من سواه .
١٢٧	لا يجتمع الزوجية والأمومة فى امرأة .
١٢٩	أبوة محمد صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أشرف لهم من أبوة النسب .
١٣٠	قال عمر : يارسول الله لأنت أحب إلى من كل شئ الخ .
١٣١	كان التوارث فى بدء الإسلام بالحلف والمؤاخاة بين المسلمين .
١٣٢	أخذ الميثاق على الرسل .

الصفحة	المبحث
١٣٣	غزوة الأحزاب - وقعة الخندق .
١٣٧	سياسة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسن تديره فى هذه الموقعة .
١٤٠	الشدائد تمحص المؤمن وتظهر نفاق المنافق .
١٤١	تحريض المنافقين للجند بالقرار من الموقعة .
١٤٣	لا ينفع حذر من قدر .
١٤٣	النفع والضرر بيد الله .
١٤٤	ذكر معايب المنافقين .
١٤٥	وصف المنافقين .
١٤٦	حال المؤمنين عند لقاء الأحزاب .
١٤٧	بعض الكلمة من المؤمنين الذين صدقوا عند اللقاء .
١٤٨	كفى الله المؤمنين القتال .
١٤٩	ذكر ما حل باليهود بعد الموقعة .
١٥٠	اليهود أسلموا أنفسهم للقتل فرقا ، وأهليهم وأموالهم للأسر .
١٥١	تخيير النبي صلى الله عليه وسلم لنسائه .
١٥٢	وعظ نساء النبي وتخصيصهن بأحكام يجدر بمثلهن أن يستمسكن بها .